رواية

الأستاذ

للمؤلف : محمد ميتا

رواية

الأستاذ

محمد مبسط

©
جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة للكاتب

الفصل الأول

في أواخر شهر أغسطس حيث ذروة فصل الصيف وضعت أمتعتها ، وكل من الحيوانات و الحشرات تستشيط من الحر و تهرع إلى الظلال الباردة و الأمكان الرطبة. وبينما تشرف العطلة الصيفية على الإنتهاء ، يبدو لنا يستعد للإستحمام مع إنزعاج طفيف لاكن لا محالة فالموعد إقترب وكأي مدرس يرغب في بدأ عام دراسي ناجح ، فلا بد من أخذ كامل التحضيرات بالإعتبار ومنها الإستعداد النفسي ، فهو يعلم أن أول شهر سبتمبر سيكون عليه أن يلتحق بفصله في الثانوية التأهيلية "حسن بن ثابت" حسب القرار الصادر عن وزارة التربية و التعليم بخصوص موعد الدخول المدرسي . وحسب هذا التحديد الموثوق فلم يبقى له من الوقت ما يسمح لأخذ خطط أخرى قيد التنفيذ .ولاسيما أن ثلاثة أيام لا تكاد تكفيه هي الأخرى في الإستعداد و تنظيم أموره الضرورية لرحلته إلى الداخلة ،حيث مقر عمله الجديد، حسب تعاقده المتجدد ، فقد كان يدرس الطلبة في تارودانت ،وصراحة كانت هذه الأخيرة أقرب إليه وقليلة التكلفة نظرا للمجال القروي هناك، أما الأن فهو مضطر للسفر مجددا و تكبد عناء البحث عن بيت ليستأجره ، و النظر في مذى تلائمه مع وجهته للمؤسسة علاوة على وسيلة النقل التي سيتبع وغيرها من الإستعدادات الازمة.

هاقد حل ظلام الليل ويبدو لنا أنه داخل غرفته قد باشر يتفقد بعض الحاجيات الأساسية والمعدات الضرورية في عمله ،إذ عليه ألا يهمل أو ينسى أي من السجلات أو الوثائق التي من الممكن أن يحتاجها. كان المنزل يتكون من غرفتان و حمام ومطبخ . تقطنه أم الزوج و زوجته و طفلتهما.

إجتمعت الأسرة لتناول وجبة العشاء كالمعتاد، بودلت الوجهات و الأحاديث المبرمجة لليوم التالي،خلد الجميع للنوم . رأسه على الوسادة لاكن النوم يأبى أن يداعب جفنيه، غارق في التخمين و التفكير كيف عساه يتدبر كل هذا و ذاك، ولاكن لاحظ كم من الصعب إستخلاص نتيجة لأمور مبعثرة؛ وكم لا جدوى من التفكير. فقرر الخلود للنوم وترك قضايا الغد في رحمته. أشرق نور الشمس ،في مظهر صباحي غريب أشبه ما يكون بظاهرة الكسوف.فالحرارة متدفقة عبر عروق الأشعة الباهتة منذ البزوغ. إجتمعت الأسرة على مائدة الإفطار ،ولما فرغت ، باشرت الزوجة تساعد زوجها في تجهيز حقائب السفر . قبل الظهيرة بوقت قليل شارف على المغادرة ،سألته بنته أن يقتني لها وزرة زهرية كما كان قد وعدها، فرد عليها بالإيجاب ثم ودع أسرته وإنطلق.

كان يعبر الشارع نحو الرصيف ، كي يستقيل سيارة أجرة تمكنه من بلوغ محطة القطار. حدث ذلك بنوع من التعثر طالما الإزدحام و الكثافة السكانية المرتفعة علاوة على البنية التحتية الغير مهيكلة التي تشكوا منها الشوارع المغربية والتي بدورها تعرقل وسائل المواصلات مما يأذي لتأخير المواطنين في نهاية المطاف.

فقد بلغ المحطة مع أذان العصر، كانت هي الأخرى كثيفة بالمسافرين و المستقبلين،فبالكاد إستطاع العبور مع بعض المناورات الخاطفة و أسرع يأخذ مكانه في القطارالذي إنطلق بعد بضع دقائق. وعلى الرغم من كل هذا الإسراع و الإجتهاد فلم يصل لوجهته إلابعد غروب الشمس، ولما إنتبه لحلول الظلام قرر أولا أن يملئ معدته ببعض الطعام، التي منذ أن غادر المحطة وهي تعزف لحن القرقرة . لمح بائع حلوزن مطبوخ،فقصده سائلا عن ثمن و جودة ما هو مقدِمٌ على ألتهامه ،ثمة إجابته بما إعتقد و أكثر حيث إلتقط كلمة ساخن، فنكبَّ على صحون الحلزون الشهي ، بدأ يسحب بالمقبض ويبلع بنهم. لما فرغ من الأكل ،سكب كوب من الماء العذب على تلك الحلزونات ، دفع الحساب و إنصرف يستأنف أين تركها...

عزم أن يجد فندقا لقضاء هذه الليلة، و عند الصباح سيكمل بحثه المتقصي عن السكن الأنسب . الذي من المستحسن أن يجمع بين الكلفة المنخفضة و القرب من مركز العمل، فإذا تحقق هذان الأمران سيكون الأستاذ قد تخلص من هم ثقيل. إذ حينها لن يتبقى له ما يقلق لأجله غير فواتير الكهرباء والماء كما الإيجار و فاتورة البقال في منزل الزوجية. وسيحاول بكل جهد مواكبة الحال مهما كان،لاسيما أنه الأن مقبل على تأقلم جديد؛لاكن وهو يتجاوز الظلال يبدو في ملامحه شيئ من الإسرار كما لو أنه يلح إلحاح على أن الحظ يجب أن يكون الى جانبه. تجلى بعدها إفطاره في القذف بشطيرة شاورمة داخل أحشائه المتلهفة،قام بإستدارة الرأس محملقا في لافتات الأبنية ، لعله يعثر على نزل قريب. لم يتمهل بعد ذلك في مغادرة المطعم والبدأ في البحث بين الأزقة، المجمعات والمحلات ؛ فقرأ وتتبع خرائط الإرشاد ،إلى أن وجده بعد بزوغ القمر وسط النجوم المتلئلئة، كان نزلا يدعى الصفاء .دخل بسرعة و رتب أموره مع المالك ،فأدله على غرفته، ثم بدأ يعبر الدرج الطويل إليها اذ إفتقر هذا النزل العادي إلى مصعد. شيئ بدهي فنزل الدرجة المتوسطة أو المنخفضة لن يكون مجهز كنزل الدرجة الجيدة أو المرتفعة.

لاكن سرعان ما وضع حقائبه في أحضان غرفته دون مبالاة وإستلقى على سريرها . فشرع مباشرة يستعد للنوم أملا في إستيقاظ مبكر يمكنه من إتمام ما تبقى من المستلزمات في أقرب وقت. مرت تلك الليلة مليئة بالأحلام المشوشة لذهن النائم المفتقر للراحة. فقد بات يتقلب هنا و هناك إلى أن سل نور الصباح بين شقوق النافذة ليعاكس ناضريه فينفضهما بإمتعاض من شدة السطوع. نهض بعد برهة يهرول حيث أدرك أن فيضا من الأشياء لا تزال قيد التوقيف،فرشف بعض الماء و تفقد بعض الأغراض ثم غادر. كان أمام نزل الصفاء يحمل هاتفه بيده ويتفقد عبر الخرائط الإلكترونية موقع مقر عمله أو الثانوية المعني بالتدريس فيها، كانت قريبة قليلا من موقعه لحسن حظه ، لاكن بدى له غياب أي محلات أو مرافق بقربها ،اذ تبدو حولها مساحة على الخريطة كأرض مزروعة او ما شابه.حدد مساره وإستقال سيارة أجرة ،بعد لحضات توقف في شارع غير مهيكل يبدو مهمش. ألقى نظرة على هاتفه ،لاحظ ان عليه عبور الشارع إلى المجمع الذي يليه ثم السير قدما حتى يبلغ المراد. تقبل الامر طالما توجد حافلات على هذا الطريق. قطع الشارع الى المجمع ليبدأ بحثه المكثف الثاني عن نزل لممارسة عامه الدراسي، أدرك أن المنطقة يغلب عليها المجال القروي من خلال عربات محملة بالتبن، ربما متجهة لأصحاب قطعان من الأغنام أو الأبقار، علاوة على الدجاج الكثيف المتنزه في الأرجاء الذي يشهد للمنطقة بغناها الحشري و النباتي.

إستطاع أن يعثر على نزلين هناك،واحد منهما يوجد أمامه محل خردة ،فقرر أن يبدأ بالأخر ،وجد أن الثمن غال قليلا،فعاد للأول فحصل على نفس السعر،فعزم على القطون بالثاني علي أي حال. تناول وجبة غذائه عند بائع طعام في المنطقة كأي شخص عاقل يبدأ بتلبية حاجياته البيولوجية أولا.وحين كان قد فرغ من طعامه نهض من طاولته الى الأخرى العريضة والمخصصة للمطبوخات ليسكب له بعض الماء ولما روى بوهلة حدث و عطس بسرعة شلت تأدية يديه لغطاء الوقاية ،فرمقه البائع بنظرة إستياء.

_ حيوان!

قالها البائع علنا،فإستغرب الأستاذ، وإعتذر متظاهر بعدم سماعه، كرر البائع نعته له ،وهذه المرة بتأني ... مكثف.

_ هل تعلم أنك حيوان؟

فإستدرك الأمر بنوع من الدعابة الخفيفة ،فرد عليه قائلا:

_كلنا حيوانات لاكننا إمتزنا عن الأخرى المعنية بالمصطلح أكثر منا بسمة العقل التي فتقرت لها هي ،فمنحنا لقب إنسان ومع ذلك فنبقى باللفظ المجرد حيوانات عاقلة و مفكرة ليس إلا. ما إن اقترب من إتمام جملته حتى قاطعه البائع بنفس الطريقة.

_لم أقصد إستدنائك باللفظ ذاته فهو غير مكتف بذاته،بل يشمل العديد من الأفعال الخارجة عن العقلنة و الغير مرغوب فيها،وأنت تعلم ماذا قصدت حين نعتك بالحيوان.فالحيوان يرتكب أخطاء عدة دون أن يعي أنها أخطاء و بالفعل فهي ليست كذلك طالما لا تسبب الضرر له،وإنما للغير ، لنا نحن مثلا البشر و بهذا يتبين أنه ليس فقط يفتقر للعقل بل و الوعي أيضا.

_أنت الأن تقصد في قولك أنك تحددني في الحيوان لتسبيبي الضرر لك بفعلي الذي إرتكبت , ولاكن هل تعلم أن الفرق لا يزال قائم بيني و بين الحيوان، فقد وعيت بخطئي وإعتذرت.

_لم تعتذر إلى بعد أن حددت صفتك في الحيوان.

_أنك تبالغ في إدعائك، وإن يكن فلم تسبب عطستي ضرر يذكر.

_عندما يعطس الإنسان يكون ذالك بسبب طرد جسمه لمواد و فيروسات غير نافعة بواسطة دفع الهواء،و أطباق الطعام كانت تقابلك حين طردت أوساخك تلك عبر أنفك و فمك اللعنين ولم تغطيهما بيديك حتى ،لجهلك بشخصك وجهلك أن أُناساً أخرون سيتناولون ذلك الطعام.

_كيف؟

_ لو كنت شخصا،لكانت لك القدرة على فك إرتباطك بذاتك ونزع المركزية عنها لأنها هي ذاتها لاتحتاج لها كلها ،وتوجه بها للحضور ولو قليلا من أجل الغير,لأنك لو لاحظت فراحتك المشبعة تلك، بعد عطسك على أطباقي لا تقارن براحتك ولذتك عند تناولها,ولأن تركيزك دائم فقط على راحة ذاتك ولاتفكر ولو قليلا في غيرك.فسوف أنزع انا أيضا مركزية تفكيري عنك أنت تحديدا ولن أخدم أي من طلبات وجباتك المقبلة.

_ ولاكن ... هذا المفهوم الذي تقدمت به عن الشخص، فهو بالنسبة لك أنت فقط،أما بالنسبة لي و لفرد أخر فيختلف،فمثلا أنا أرى أن الشخص هو ذات مفكرة واعية بأفعالها ،ومستقلة تماما ،و في غنى عن الغير ،و قادرة على تحقيق معرفة يقينية بذاتها بدون الحاجة إليه أيضا.

_ مخطأ...

_هل تعلم...يجب علي أن أذهب

_مع السلام

فغادر المطعم مسرعا ،معكر المزاج، متمتم في إستياء:

_ ..هراء...هراء...يالسخف...

أقبل على النزل فأوى إلى غرفته، كان مشوش الذهن،مع ذالك رأى أنه من الأحسن أن يأخذ قيلولة قبل أن يباشر في تسوية المسائل المتبقية. رويدا رويدا حتى غط في النوم، لم تكن غفوته بالطويلة الأمد،فبعد ساعة او قل إستيقظ منقضا على الساعة؛وجدها الخامسة إلا ربعا،فنهض ليرتدي قميصه ،تنبه لتبقي مرحلة واحدة ويكون إستعداده قد تم؛ مرحلة إعداد وسيلة النقل التي سيتتبعها. على كل،فقد إختلف الأمر بالنسبة لتكلفة الحافلة في جوهرة الجنوب عن تارودانت،إذ كانت منخفضة .علاوة على أن معضم الخدمات والمنتوجات في الجنوب يقل ثمنها عن غيرها في الشمال، ربما محاولة من المملكة كي تستدرج الشعب للإستقرار في الجنوب، أملا في وضع الصحراء تحت الإبط. ولاكن هيهات، كيف للأمور أن تكون ساذجة هكذا ؟ فدارت مناقشة قصيرة بينه وبين موظف وكالة الحافلة ، كان قد ساوى أموره بشأن وسيلة النقل،ثم حدثت وهبت عليه أول لحظات الإرتياح العذب و هو يغادر الوكالة ,حاول تخمين حجم الباقي بعد أن يطرح منه نفقة العائلة وتكلفة الفواتير و الإيجار،لاكن شيئ وحيد يبث فيه الأمل عندها رغم إدراكه بمدى تأزم وضعه المعيشي ويجعله يتفائل، ألا وهو إقتراب موعد إعادة تعين التعويضات، فنظام جديد سيعلن،وزيادات في الأجور ستبشر وسيبدأ بالإبتسام حتى تظهر الأسنان،وتكون قد زالت الأحزان،وحل الفرج عليه وعلى عدد من المعلمين الأخرين الذين يترقبون هذا الملاذ بنفاذ صبر. عاد أدراجه إلى النزل و جلس على ،سريره،بعد أن إنتهى تأثير وميض أمله ,عادت الشحنات السلبية المدخرة للتنزه في أرواق ذاكرته فنتفض من على سريره ممتعضا...

_ الجاهل...حددني في صفة البهيمة لإعتقاده أنني إنفصلت عن وعيي...ها ها ها! لا يدرك أن الكائن العاقل وعيه مقترن بفكره،والدليل حركة يدي المتأخرة،أي أني نويت بعد أن ظننت...لا قطعا لم أنوي،بل كانت حركة غريزية من جسدي ،لإعتياده على القيام بتغطية فمي و أنفي عند العطس،أجل فإدراكي الحسي مرتبط بنشاطي العقلي كما قلت سابقا ،وهذا كاف لإثبات عدم خطئي فأنا شخص...أنا شخص و الدليل أن معرفتي يقينية بذاتي،فأنا الأن واقف ،وأدرك تمام أني واقف،أما البهيمة فقد تكون تعدو و تحسب نفسها جالسة،علاوة على أن لي هوية ،والبهائم ليس لها فهي كلها متشابهة مع بعضها البعض في قطعانها.عكسي أنا الشخص البشري فقد أنعِم علي بهوية أختلف بها عن غيري،و منحت مجموعة من الصفات إنفردت بها ،هي التي تميزني و تجعلني أنا نفسي،ولا يستطيع أي عامل خارجي أن يغيرها...هناك جبل من الفروقات بيني و بين الدابة، شتالة ما بيني و بينها البائع الأخرق كان يهذي علي...

بعد أن إستنزف كامل الشحنات، بدى يستعيد تركيزه ثانية ،فندهش لعلمه أن غدا ستكون الإنطلاقة وهو لم يشعر بمرور الوقت، فباشر بنشاط آستعداداته لعام دراسي حافل بالنجاحات.فرسم خططه التعليمية بالقلم و المسطرة على الدفتر و تحقق من أنا جميع الوثائق المهمة يحتويها الملف ثم مر للحاسوب, و باشر يجهز أموره واحدة ثلوى الأخرى حتى أجهز عليه التعب ،فقصد مضجعه ،خمن ليلتها في حال أسرته ما عسى إبنته الحبيبة تفعل في ذالك الوقت ؟ وهل تكون تعشت وخلدت للنوم أم لا زالت مستيقظة ؟

الفصل الثاني

إنقضت أخر ليالي العطلة الصيفية و حلت أول أيام سبتمر الدراسية،وما إن أطلت أشعة الشمس حتى ترى أطفال في الشوارع و الأزقة يتصايحون فرحا و يركضون أمام أبائهم متشوقين للبدأ من جديد و ملأ تلك المقاعد الفارغة و اللهو مع أصدقائهم و القيام بالنشاطات الترفيهية و التعلمية،أما فئة الكبار فتبدوا لا تقل شوقا هي الأخرى لحمل الحقائب، فلدى الشباب أيضا أشياء تجذبهم إلى المدرسة كما نعلم ....

كان هذا المشهد كافيا ليجعل الأستاذ يدرك أن وقت الواجب و العطاء بالفعل قد حانا،ومن الذي يقاوم منظر كل هؤلاء طلبة العلم و المعرفة ؟ولو كان الغائب عن الوعي لستيقظ مهرولا ليحمل حقيبته و يعطي من حيث لا يدري .فتوجه مسرعا بعد فطور مرتجل نحو موقف الحافلة ،وصلت هذه الأخيرة بعد قليل, فصعدها بتصميم...

وريثما يقف ممسكا بالمقبض خاطبه أحدهم:

_ هاي أنت.... يا صاحب المحفظة...أستاذ صحيح؟

إستغرب قليلا،أراد تجاهله،فرمق انه يحدق في عينيه بتحدي منتظرا رده, فأجابه

_ نعم...

_ كنت أعرف...وها انت الأن ترتكب تمام نقيض تصريحاتك و مفاهيمك...اليس كذالك؟

_ لا أفهم عن ماذا تتحدث...من تكون حظرتك ؟

_كنت من المستمعين لتراهاتك في المطعم،حول الشخص و الغير،و أنك ترى شخصك عارف و مستقلا بالكامل عن الغير ولا تحتاج إليه بثاثا،فتساءلت يا ثرى لما شخصك هنا مع أشخاصنا التي في حاجة ماسة إلى الغير كي يقود بنا هذه الحافلة.

_أسف ولاكن يبدو أن هناك سوء فهم...فانا لم أنفي أبدا الحاجة للغير في جل أشكالها، بل تحدث عن معرفة ووعي ذات الشخص بذاتها في نطاقها الخاص،أي مستقلة عن ذات الغير ولا تحتاج لها كي تساعدها في معرفة ذاتها،فمثلا أنا كنت عابس التعبير ، وأنت قمت بحثي على الإ بتسام،لماذا ؟

لأنك ظننت أني لا أدري أني عابس أو إعتقدت أني شارد و غير واعي بذاتي ،لاكن عكس ذالك تماما ، فأنا عابس لأن حالي تستدعي العبوس ،فقد خسر فريقي المفضل.لذا فذات الشخص في إطار معرفتها بذاتها تبقى دائما في غنا عن الغير.

_اها ...لابأس لابأس وفقت ها...لاكن اخبرنا ماذا يعني الغير بالنسبة لك؟

_لست مجبرا على إجابتك،لكن بما أنه على الأقل أفضل من ملل الصمت فالغير يا صديقي أو الأخر يمثل ذاتا أخرى تدرك أفعالها و محيطها ثمام مثل ذاتي .

_ لم أفهم...وأنت؟

_ كيف؟

_ أنا قصدت ما علاقتك بالغير ؟ماذا يمثل وجوده بالنسبة لك؟

_حسنا...إسمع،وجودي أنا كذات عارفة مع الغير يقوم على إنفصال ،فكل منا يعي فقط وجوده الفردي،لاكن عندما نكون معا مثلا نحن على هذه الحافلة ،وجودنا الفردي يبدو أنه ذاب و إمتلكا جميعا وجودا مشتركا، الذي قد يتميز بالتوتر أو الإنسجام،وقد يحس كل واحد منا أنه لا يستطيع أن يكون خارج هذه العاطفة ،و يشك في أنه فقد السيطرة على مشاعر ذاته و حريته الشخصية ربما ليصير شيئا،لاكن الأمر ليس كذالك فهو فقط صار خارج حريته الشخصية لأن وجوده تميز بإنبثاق الغير،أي أن حالته عبارة عن صفة لوجوده المشترك مع الغير والتي سببها في الأصل توقعاته لأحكام القيمة التي قد يجنيها إنطلاقا من أدائه داخل المجموعة الغيرية.

_ جيد...لاكن بشكل أكثر تبسيطا، كيف تبنى معرفتنا بالغير في الوقت الذي تميز وجودنا معه بكل هذا التعقيد ؟

_صراحة ،معرفتنا به قد لا تختلف عن تلك الخاصة بالموضوع،إذ ندركه بإعتباره موضوعا نفسيا،بمعنى نبني معرفتنا معه على أساس أنه ذات أخرى كالتي لدينا،ومع ذلك تبقى هذه المعرفة أيضا تتميز بالغرابة،فمشكلة معرفة الغير للأنا, لطالما وجدنها تطرح نفسها،والسبب هو أننا دائما حبيسون داخل ذواتنا، فرغم محاولات تعرف الغير عنا وتعرفنا عنه تبقى أبواب كلينا موصدة في وجه الأخر،وهذا كله راجع للتجربة الذاتية، التي لا تقبل بثاثا أن تكون موضوع نقل.فمثلا حدث و تناولت طعاما مذاقه في غاية اللذة، فسوف أبقى عاجزا عن وصف مذاقه لك مهما حاولت،إلى أن تتذوقه أنت بنفسك وتجد أن إنطباعك من الوصف الذي قدمت لك،يختلف كليا عن تجربتك الذاتية.

_معرفتنا بالغير ناقصة إذا...ولذلك وجدت مذاق الطعام ليس كما وصفته لي...عل كل...
ماعساها تكون ماهية هذه العلاقة التي يجب أن تقوم بين الناس في ظل هذا الوجود المعقد و المعرفة الناقصة بين بعضهم البعض ؟
_ أنت الأن تسالني ما الذي على الإنسانية أن تقوم عليه،وكم أجابت عن هذا السؤال النصوص الدينية بشتى الطرق و الأوجه،ومع ذالك يبقى الجواب مبهم لكم و تحتاجون لنمط مبسط كي تفهموا،حسنا إسمع : أنت إنسان صحيح!
_ بالطبع!
_ إذن عليك أن تكرس حياتك كاملها لمصلحة الغير،بمعنى على الجميع أن يحيى الحياة لأجل خير و سعادة بعضهم البعض،ونشر الإنسجام الأخلاقي كي يتمكن الوجود البشري من الرقي. بإختصار علاقة تماسك وتفان.
_عظيم!
_ حسنا...والأن أعذرني سوف إنزل هنا...
_ مع السلامة...وداعا ! وداعا يا أستاذ!

كان قد بلغ المبتغى ،فهاهو ذا العَلم يرفرف نابضا بشعار الجد والإجتهاد و المواطنة و للإنظباط، فتقدم بفخر و عزيمة فذتان،فما إن خطى داخل المؤسسة التربوية حتى ألهمه ثانية مشهدها، كانت تعج بالطلاب الشباب و الشابات ملأت روائح عطورهم فضائها ،فإختلطت و تجانست فيما بينها لتفرز ما يشبه رائحة عبق نفات أو محلول قلوي مركز، ما إن يستهدف أنسجة الأنوف حتى يجعلها تستشيط إنتعاشا. فعبره وتقدم بثقة، كان قد إنضم إلى مجموعة المدرسين داخل إحدى قاعات الإدارة حيث الأحاديث الافتتاحية و العفوية،المشيدة لعلاقات زمالة قد تكون ذات أهمية في وقت ما،بعدها يلتحق الأساتذة بفصولهم و كأي حصص أولى في الدورة الدراسية،أغلبية المتعلمين لم يلتحقوا بعد و الملتحقون يتبادلون التعارف بينهم و مع أساتذتهم و يتفقون على ما يجب الإتفاق عليه إلى أخره...ينتهي دوامه عند الثانية عشرة زوالا، فيفأفأ هل يعود مباشرة للنزل أم يتناول وجبة غذاء في مكان قريب أولا، قرر العودة و حينها سيتغذى هناك...

وهكذا ظلت الأيام و الحصص تمر بلحن متكرر بطيئ التطور و التقدم،فالطلاب لم يلتحقوا بالكامل ،مما يشكل إرتجالا و عرقلة في بدأ البرامج الدراسية.
عاد زوال السبت إلى أسرته الغالية ليقضي معها ماتبقى من هذا الأخير و عطلة يوم الأحد،حدثته إبنته عن أجواء الدخول المدرسي ،حيث أخبرته أن كل شيئ كان جميلا ورائعا و أن أساتذتها جيدون و أن كل شيئ كان في أحسن ما يرام,بإستثناء جزء واحد،وهو حين بدأ صديقاتها يسردن ما قضوه من نشاطات ترفيهية و رحلات إستجمامية أثناء العطلة, إذلم يكن لدى المسكينة شيئ تحكيه لهم, ضمها إليه و قبلها على رأسها ،ثم وعدها بحرارة أنه ستكون هناك الكثير من الرحلات المميزة في العطل القادمة،فبتسمت ،وإستطرد يداعبها في مرح، همت الأسرة لتناول العشاء ، كان يسرع في سبيل كسب وقت كافي للراحة ،بما أنه سيوشك على إستنزاف البعض منه لأجل تصحيح بعض أوراق التقويم التشخيصي الذي أجراه لتلامذته...

الأحد الثالث من سبتمبر, كان يدرك عدم تبقي الكثير من الأيام و سيستطيع البدأ في إلقاء دروسه،علاوة على إقتراب حلول الفرج المنتظر...عند الرابعة زوالا بعد أن أوفى شيئ من ديون البقال وأحظر جرة كبيرة من غاز و كيس طحين شرع في حزم أمتعته ثانية ،و توديع الأهل ،لبدأ رحلة أخرى طويلة إلى جوهرة الجنوب.

أقبل على المحطة بعد ربع ساعة, و إستغرق القطار ثلثها,ثم أوصلته سيارة الأجرة الثانية لشارع النزل مع الساعة السادسة إلا دقيقتين... كان يرغب في أن يذهب هو الأخر لمقهى ويشاهد مباراة ما ,ويتبادل الأراء مع الحاضرين، لاكن أزمته المادية كانت كمدرعة حربية تقف أمام جميع حاجياته التي ليست من الطوارئ...

إلتحق صباح الإثنين بالمؤسسة ،لاكن ما من جديد، نفس العدد القليل يحظرمرة أخرى،فوزع عليهم أوراق التقويم وصححه معهم،وتراكمت الأيام على هذا النحو إلى غاية يوم الخميس ،حيث قد قام بتوقيع أوراق تهم دعوة لإجتماع مدرسين، كان موعده يوم السبت الحادي عشر من سبتمبر...

في يوم الجمعة كان عدد الطلاب قد إنخفض بدل أن يرتفع،ولحسن حظه إستطاع الإنساط للخطبة و تأدية صلاة الجمعة في مسجد لا يبعد كثيرا عن المؤسسة،عاد بعدها للنزل كي يأكل شيئ ما.و أخذ قيلولة كي يتمكن من قاومة العمل ليلا. كانت الساعة السابعة و دقيقتين حين لاحظ أن الشمس بدأت بالغروب،فنهض يبحث عن كوب ماء يسكبه في حلقه الذي أنشفه الشخير، كان يتعرق من الحر،رباه كيف عساه ينام في درجة حرارة كتلك،قام بعدها متوجها إلى الحمام كي يزيل عنه قليلا من الرمضاء. بعد الإنتهاء إستوى على مكتبه فاتحا حاسوبه و بدأ يتفقد بعض الملفات وبعد غضون نصف ساعة أحس بالجوع فغادر النزل متذكرا شطيرة الشاورمة الشهية،فتساءل هل يجد بائع لها في الجوار،لم يعثر على شيئ ،لاكنه إنتبه لمطعم شواء مفتوح على مصرعيه،فهم إليه وقد بدأ لعابه يسيل، وضعوا أمامه طبقا جذابا. فصعقه شيئ ما،وغادر بسرعة، كان قد تذكر أزمته بعد أن نساها،فإستأنف بحثه عن عشاء في مستواه، وبعد بضع دقائق عثر على بائع كباب فتعشى عنده وعاد أدراجه، كانت الساعة الحادية عشرة حين بدأ يتذمر من تأخره عن إتمام تلك الواجبات حتى الأن،فإنكب على الأوراق يعدل ويدون فجأة بدأ يحس أن كل شيء من حوله يتحرك.المكتب ،الطاولة و الحاسوب.أحس بالهلع يمزق أحشائه لم يدري ما الذي عليه أن يفعل,فهرع مهرولا للخارج، كان الجميع يركضون في قطعان مبعثرة فإنضم إلى العدائين و إنطلق السباق. كانوا ينزلون الدرج بفوضى و صياح خائفين مفزوعين لم يستوعب أحدهم بعد ماذا يجري ،فردود أفعالهم لازالت غريزية تتعلق بإرادتهم في البقاء،حيث أحسوا أن هناك تهديدا قائما.حيث غادرو ذواتهم العاقلة في رحلة قصيرة إلى كيان الحيوانات عند إستشعارها الخطر,و في الخارج ساكنة الحي جميها تشارك الأستاذ رعبه،مما زاده إستغرابا،الكل يحاول أن يستعيد وعيه ويفهم ما يحدث،بعد برهة وضعت لهم دجاجة ذاكرتهم بيضة زلزال، فأمسكوها وتفقدوها بإندهاش، كان يحاول أن يضبط نفسه ويجمع أفكاره،لسوء حظه إنسكبت كلها حين تذكر أن أسرته الحبيبة في هذا الوجود ،فأخذ قلبه يضرب كالطبل،حاول تهدأة نفسه و تذكيرها بإختراع الهاتف. ولما إتصل بزوجته ،بدأ قلبه المسعور يتهدن حين سمع صوتها, فسألها هل إبنته بخير ،فطمئنته أن الجميع بخيرولم يصب أحد بأذى،وأنهن يتواجدن خارج البيت مع باقي السكان.

الفصل الثالث

بدأ الإعلام يزود الناس بالمستجدات والأخبار، فقد وقع الزلزال بمدينة مراكش داخل منطقة تدعى الحوز ، كانت قوته بقدر ستة فاصلة ثمانية عبر مقياس الزلازل المعتمد، كما وصل صداه إلى عدة مدن أخرى، ويبدو أن نوبة الرعب التي بثتها هذه الفاجعة ليس من السهل تجاوزها،فمعضم الساكنة لم يبرحوا أماكنهم في الشارع و الجميع متكتلون على جانب الرصيف، بعضهم قد إقتحم الطريق، وهناك من ركض محضرا ملائته وبدا واضحا للأستاذ أن الكل قد حسم أمره ، وسوف يقضون أول ليلة لهم في العراء، مشاركين بذالك المتشردين تجربتهم، حقيقة ذاك كان الخيار الصحيح فعادة ما تلي زلزال الأرض هزات أخرى إرتدادية.

وبينما الجميع يتبادلون و يتشاركون لحظات الفزع و الرعب،إمتعض رجل كهل قائلا:

_أنتم ترتجفون خوفا مثلكم كنسائكم، أين شجاعتكم و رجولتكم، أنا إبن مدينة أكادير وقد عشت زلزال أفضع منه،لقد شهدت كثيرين هناك فارقوا الحياة أمام عيني و منهم أفراد عائلتي , فلتحمدوا الله مادمتم على قيد الحياة.

فرد عليه شاب مدافعا:

_ أنت مجرد مغفل تحاول إبادة خوفك من خلال إرجاعه علينا، وأيضا نحن لسنا خائفين ، وعن أي تجربة أفظع من هذه تتحدث، من الواضح أن قوة الصدمة قد أثرت في عقلك.

فرد الرجل الكهل بإستياء:

_ أنا أتحدث لك عن التاريخ ! هل تفهم معنى التاريخ أم...

قاطعه الشاب بسرعة:

_ مجموعة من الأحداث و الوقائع التي حدثت في الماضي,وماذا بعد؟

إمتعض الرجل الكهل من تصرفه و قال:

_ لم تكن أنت قد أتيت للوجود بعد؛حين حدثت تلك الهزة المريعة.

بدى الإنفاعل ظاهرا على ملامح الشاب، فرد عليه بهذا الشكل:

_ هل تعلم ؟ و ما الذي يجعلنا نصدقك ،قد تكون فقط تحاول إثبات ذاتك و التباهي علينا لا غير.

بدأ الكهل يرمقه بنظرات إستغراب ثم بضحكة باهتة:

_لا يهمني إذا لم تصدقني فأنا لم أطلب منك، ولاكن تلك الحادثة قد وقعت بالفعل إذا لم تكن تصدقها هي الأخرى.

فرد عليه الشاب متحديا:

_ بصراحة، ما من شيئ يدعوني إلى تصديقها، و قد تكون لم تحصل قط.

إندهش الكهل فأجابه ساخرا:

_ ولاكن هناك دلائل ووثائق و مؤرخين يؤيدون صحة تلك الواقعة يا بني الأمر ليس على هواك.

فصمت الشاب لوهلة مفكرا، ثم قال:

_ هل تعلم ؟ المعرفة التاريخية صعبة و غير ممكنة و قد تكون مستحيلة أحيانا، فغالبا ما تكون الكتابات التاريخية مسبغة بجنس الرواية و الأفكار الإيديولوجية، علاوة على الخيال وهو أفضعهم.

الرجل الكهل:

_ إرجع إلى نفسك يابني، ماتقوله خطير، فأنت بهذا الكلام تشكك في تاريخ بلدك، ألا تعلم أن هذا لا يجوز ؟

فرد الشاب متحديا مرة أخرى:

_ أنا أعي ما أقول، فدراسة التاريخ إنطلاقا من عصرنا تلحقها مجموعة من الثغرات، ومنها المدة الزمنية الفاصلة بيننا و بين الواقعة ،حيث قد تكون حاجز لعدم فهمنا ما مضى إنطلاقا من عصرنا، إضافة إلى أن معضم المؤرخين يكونون متحيزون سياسيا و إجتماعيا أو حتى طبقيا، مما يجعل كتاباتهم مفتقرة جدا للموضوعية.

إحتقن وجه الرجل الكهل و بدى يحملق فيه، لم يعد يدري كيف يدافع عن وجهة نظره التي ليست بالخاطئة، فلم يجد الأستاذ مفر من التدخل، فبادر قائلا:

_ المعرفة التاريخية ممكنة !... بواسطة الوثائق و الأثار نستطيع إعادة ماحياه الذين عاشوا من قبلنا، كما أن الوثيقة التاريخية التي إنتقدت مصداقيتها من أكثر الوسائل فعالية في الدلالة على حدث تاريخي وجعله واقعة تاريخية.

ظهر بعض التوثر على وجه الشاب:

_لكن المؤرخين الذين يكتبون التاريخ لا يتميز أغلبهم بالمصداقية في إعادة الأحداث الماضية.

فمثلا،لدينا مؤرخان،واحد سلفوكي و أخر بولوني،حدث و نشبت حرب بين بلديهما،ما سيحدث هو أن كل واحد منهما سيظفي على تاريخ دولته أثناء تلك الحرب نوعا من الملحمة و البطولة أنها كانت الأفضل و الأكثر تحكما في الوضع حينها.بمعنى لن يكون أي منهما موضوعي بشأن وثائقه و كتاباته.

_أفهم وجهة نظرك جيدا ،لاكن كتابات المؤرخين تخضع للتحليل ومراجعة مركزين قبل أن تحصل على مصداقيتها و تخرج للعلن، فالمعرفة التاريخية قائمة على منهج موضوعي صارم،وتكون دائم ضد التمثلات الغير واقعية. كي نستطيع بعدها الإستفادة من تجارب السابقين و الإستعانة بها في التقدم والتطور.

_ غير صحيح،أنت الأن تقول أن تاريخ البشرية منذ القدم و هو يهدف فقط لجعلها أحسن و أفضل.قد يكون يتقدم في الكلية،ومع ذلك تبقى بعض أجزائه مفتقرة لتطور، كالدول الأقل نموا على سبيل المثال، كأفغانستان و إثيوبيا في مقابل الصين و اليابان،بمعنى أحداث التاريخ فجائية و عرضية ليس إلا، فالتاريخ نفسه يمكن أن يحدث التخلف.

إندهش الأستاذ من قوله:

_ كلا ! التاريخ سيرة تقدمية مظبوطة،فهو لا يسير سوى نحو الكمال و إتجاه الفكرة المطلقة، ألا وهي الرقي بالذات الإنسانية. فإذا لاحظت، فالتاريخ يتقدم أيضا في ظل الصراعات الإجتماعية و الطبقية ، بحيث الكل يسعى للتفوق على الأخر و تجاوز ذاته إلى مرتبة أسمى، مما يجعل الجميع يخطون و يتقدمون للأمام.

_حسنا حسنا...تبدو لي أستاذا عارف... هل في نظرك أن الإنسان هو صانع التاريخ أم أن هذا الأخير هو صانعه؟

_ بالطبع للإنسان دور في التاريخ ، وكلنا نعلم أشخاصا أثرو في فيه بشكل عميق، كتوماس أدسون مثلا، الذي قد قام بإختراع المصباح الضوءي.

_ إسمع يا سيدي، الإنسان مهما يفعل يبقى مجرد وسيلة ومنتوج في التاريخ، أما توماس أدسون فلو حدث و توفى قبل إختراعه،لما أحدث أي تأثير في التاريخ.وبإختصار التاريخ ليس إلا بيد العوامل الميتافيزيقية.

_ أجل العوامل الميتافيزيقية،ولاكن إرادة الإنسان أيضا لها دور في التاريخ لا يمكن إنكاره، فالتاريخ حتى لو كان يفلت من أيدينا و لسنا بالأشخاص المميزين فيه, فهذا لا يعني أبدا أننا مجرد نكرات.بل نحن قوائمه وركائزه،فالناس لم يكونوا أبدا وسائل في التاريخ،بل هم منتجوه و صانعوه عبر الإمتثال للشروط و القوانين الأخلاقية بغاية بلوغ ماهو أعلى منهم والسعي للرقي بذواتهم.

كان الخبر قد ذاع وإنتشر وبدأت معالجة معلوماته و قذف مستجداته، ولحسن الحظ بل و أكثر من ذالك إنه لاقرب للمعجزة إذ لم تخلف الكارثة أي ضحايا،فقط بعض الجرحى قليلوا العدد، وكله بفضل البنية التحتية الممتازة في تلك المنطقة و جميع مناطق المملكة، بحيث أن الزلزال لم يتمكن من إحداث خدشة في الحائط،وهذا شيء طبيعي فكما نعلم جميعا ، المغرب دولة حريصة جدا و حذرة في البعدين معا، القريب و البعيد،ولاسيما عندما يتعلق الأمر بسلامة شعبها العزيز، فقد لا تدخر الحنينة جهدا أو رمقا ،حتى لو إستنزف الأمر منها أخر قطرات دمها فسوف تراها قدمتها على عجل و هرولة. وتبقى هذه من بين السمات الكثير التي تزخر بها المملكلة تجاه شعبها، و تجاه الدول الأخرى أيضا.
إضافة إلى أن أن هذه المتانة المعمارية بالمملكة قد شملت كلا المجالين ،القروي و المدني على حد السواء. الشيئ الذي صد الهزة بغاية السهولة،إذ لم يحدث و تزحزح منزل قط أو بناية.ومن الجدير بالذكر فهذه التركيبة البنيوية المقاومة للزلازل تبرز لنا مرة أخرى الجانب اليقض في القائمين بالهندسة المعمارية و منسقوا البنايات بالمملكة, إذ كانوا يدركون سلفا أن المنطقة المعنية بالفعل تحاكي خط نشاط زلزالي يمتد من شرق الإفريقي إلى غرب المحيط الأطلنتي بالنسبة للمملكة، وهنا بزغت حنكة و براعة المكتب الإستراتجي للتعمير بالمغرب و الدقة التدبيرية الفذة التي يتمتع بها. وقد إنتشرت الكثير من المقالات التي تصف هذا التميز الخارق للعادة،لدرجة أن عدة دول من شدة إعجابها و حماستها بهذه الهمة التي أبداها المغرب،بدأت تطلب منه عبر البرقيات أن يمنحها الإذن بالقدوم لإلقاء نظرة على الأذاء الباهر الذي أبداه هذا النوع المدعم من الأبنية السكنية و المنازل الحصينة. و رغبة منها في ترقب التصدي الفائق لتلك الدغدغة كما وصفها أحد الناطقين بإسم الحكومة في المملكة.

في صباح علم الأستاذ أنه تم إقرار إجازة لمدة ثلاث أيام مخصصة للإحتفال بالنجاة و السلامة من هذا الخطر،وبالأداء الغير مسبوق للبراعات المغربية. كما قد سمع أنه من الممكن أن يخلد ذاك اليوم كذكرى وطنية تحت مسمى اليوم العالمي للإجتهادات الإستراتجية والهندسة المعمارية.
أسعده جدا هذا الخبر، فهو يرغب بشدة في العودة والإطمئنان على حال عائلته فعليا، حزم متاعه بعد أن تناول فطوره المكون من خبز بارسي بالجبن و ياغورت، مثل أطفال الرودة عند الإستراحة، ثم باشر في الإنطلاق.

إستغرق الأمر ساعتين ونصف هذه المرة،وصل عند فترة الظهيرة، فأوى إلى البيت وعند وجبة الغذاء بدأت الاسرة تتبادل لحظات الواقعة بشغف. فقالت الزوجة أنها ما إعتقدت ذلك إلا قيام ساعة نطلب ا السلامة و العافية فكل ما سورها في دهنها هو ترديد الشهادتين و حث إبنتها على ترديدهما أيضا،أما الأم التي لم تغادر مضجعها قط فقالت إن العليم الخبير يفعل بعباده مايريد. فبدأت تمضي أيام هذه العطلة بوقع غريب ممزوج بالإحساس بالنجاة و إستعادة ذكريات الفزع،فقرر في أخر يوم متبقي أن يكسر هذه الهالة عن طريق إقتراح القيام بنزهة مع الأسرة،لاكن أمه لم تكن في حال جيد،فقد كانت تعاني من زكام حاد، فقرر تأجيل النزهة ليوم أخر،إذ ليس من ألائق التنزه مع زوجتك و إبنتك بينما والدتك المريضة في المنزل.
في أخر الليل كان يشاهد التلفاز بفخر و إعجاب كبيرين، كانت الأخبار تعرض تنظيم نشاطات ترفيهية و نصب خيم كبيرة لإقامة إحتفلات بمنطقة الحوز حيث إرتكزت الدغدغة، كانت ملامح الجميع تحيل إلى السرور و السعادة،و من لا يشعر بأحدهما بعد أن تصدى وطنه لكارثة طبيعية بصلابة رجال البناء وجدارة المهندسين ،إلى تفان و أمانة المرشحين،فكله في أحسن أطواره إلى حد الساعة ،لاكن الأستاذ بدأ يفيض عليه شعوره الإجابي أكثر من الازم، فقرر إيقافف تشغيل التلفاز و الخلود للنوم.

إنقضت العطلة و عاد أدراجه إلى مدينة الرشيدية حيث مقر عمله، لما قطع الأشواط ودخل الأسوار إتجه لقاعة الأساتذة فوجد بعضهم في خضم نقاش ما...
كانت معلمة الفزياء تبدوا متعطشة لقيادة الحديث و التحكم به، كان نقاشا حول مقياس ريختر لزلازل بينها و بين معلم الرياضيات،أما باقي المعلمون فينسطون في هدوء.

عندما حظر الأستاذ بينهم و ألقى التحية رد عليه البعض ثمم سمعها تأخذ الكلمة من جديد:
_أنت يا أستاذ حقا لا تود أن تفهم ما أقوله لك،وتظن نفسك عارفا أكثر مني، أنت حقا لا تعرفني من أكون.
رد عليها معلم الرياضيات بتعجب خفيف:
_ أنت قلتي أن مقياس ريختر يتأسس بكامله على التجربة، و إستنكرتي نقاط عقلية في غاية الأهمية تستند إليها حساباته الرياضية.
قاطعته معلمة الفزياء:
_ أجل أجل فكل شيئ مبني على التجربة،لاكن إسمع! لا أحب من يتحدث معي بهذه الطريقة، فهكذا أنت تتطاول على عرضي،و أنا من رواد المنهج التجريبي و لازلت ،وقد كنت من أبرز المسؤولين على المقتضيات العملية في المختبر الوطني بالدار البيضاء، لذا لا تحدث معي بهذا الشكل.
قهقه مدرس مادة التربية الإسلامية:
_لاكن هذا لا يوجب عليه أن يقدس قولك فهو ليس قرآن منزلا، قد تكون لديك تجربة أطول و عمر كذلك، لاكن هذا لا يمنع تعرض قولك للنقد.
بادرت معلمة الإجتماعيات:
_أنا أعتقد أن الأستاذة تتحدث عن تجربتها الخاصة التي هي مجموعة من الخبرات إكتسبتها من إخلال إحتكاكها بالواقع وليس التجريب العلمي الذي يحيل إحداث ظاهرة ما للتحقق من نظرية معينة.
إحتقن وجه معلمة الفزياء، وبدأت تتنفس بصعوبة ثم ردت بهذا الشكل:
_ أنا أعرف جيدا الفرق بين التجربة و التجريب يا أستاذتي، ومع ذلك شكرا لتكرمك بإعادة تلاوة مفهوميهما علي مرة أخرى ،على أي حال، ما أشرت إليه في نقاشي مع الأستاذ ،أنه إدعى أن المنهج العقلي يتكفل بالدراسة و المعرفة العلمية لمجموعة من الظواهر ومن بينها الزلازل دون أدنى حظور للمنهج التجريبي ، وهذا خاطئ و غير صحيح بثاثا، إنه لكمن يبني على الرمال. فالنظرية وحدها،عمرها كانت وافية لدراسة أي ظاهرة ، بل التجربة و التجربة فقط، و إنزال كل شيء للإختبار و الفحص هي الوحيدة الموصلة للمعرفة العلمية.
رد معلم الرياضيات بوجه إسمنتي:
_مهما كان لتجربتك من قوة و صلابة فلا يمكن أن تستغني عن العقل و البرهان،لأن النظرية هي نسق كل المبادئ و القوانين التي تنظم ملاحظة أي ظاهرة .

قاطعته معلمة الفزياء مرة أخرى:

_أبدا ، بل المنهج التجريبي هو الذي ينظمها و يبنيها بمراحل جد منطقية،بحيث يجب على رائده أن يجمع بين الملاحظة الدقيقة و التجريب في الوقت ذاته.وذلك كالتالي ؛ أولا يجب أن يقوم بملاحظة الظاهرة بتمعن ،ثانيا أن يضع فرضية لها،ثالثا أن يطبق تجربته،ثم أخيرا أن يصوغ إستنتاجه وما توصل إليه.

معلمة الإجتماعيات مستشكلة:

_هنا لم نعد نستوعب شيئا...

أخذت أستاذة الفزياء الكلمة مرة أخرى:

_حسنا،مثلا أنا أمشي حاملة شمعة،فجأة إنطفئت بسبب الرياح،سألاحظ ذلك و أحظر قنينة زجاجية و أضع فيها الشمعة دون أن أغلقها، ولا حظت أنها لم تنطفئ،وسأفترض أنني حتى لو أغلقتها لن تنطفئ أيضا،هذه تبدو نظرية عقلية و هل يكفي فقط أني بعقلي توصلت لها و أدعها دون تجريب؟ كلا سأخضعها لتجريب و بعدها أستنتج إنطفاء الشمعة، بفعل نفاذ غاز الأكسجين القابل للإشتعال.ولا داعي للتحدث عن الغازات و الأمور بالتفصيل.وعليه نتوصل إلى أن المنهج التجريبي فائض الشمول و الكمال.

معلم الرياضيات بإبتسامة باهتة:

_ بالعكس ، إنما لمفرط القصور و النكوص، وتبقى العقلانية كمنهج، الوحيدة التي يمكنها أن توصلنا لكل شيء دون إخضاع أي تجربة أو هراء.فالإبداعات جلها لم تأتي من التجربة بل العقل،بكونه يضفي التماسك المنطقي و المتحكم في جميع الفروع، إنه لكما وصفه أينشتاين المبدئ الخلاق، علاوة على أن أدوات مختبركم كلها أحفاد للجدين النظرية و العقل، وبعد أن كبرت أنجبت جنين لا يكف عن الصراخ يدعى التجربة، فهذه الأخيرة بإختصار يا أستاذة، عاجزة عن إعطاء تفسير لكل الظواهر التي تحصل في هذا الكون كالظواهر الميكروفزيائية مثلا،قد إنبثقت فرضيات و تفسيرات لها تكب في بحر الخيال،أي أنها تجاوزت العقل حتى،فكيف لتجربتك أن تفسرها.

إحتقن وجه معلمة الفزياء و معلم الرياضيات يحملق في الحضور...بعد صمت قصير قرر أستاذنا أن يتدخل لنثر بعض الإنسجام بعد أن أصبح مهددا و تصحيح أيضا بعض المغالطات...

ـ مع كل إحتراماتي لطرحيكما، لكن في إطار الفكر النقدي، فأتقدم بالقول أن النظرية العقلية لا تكون علمية إلا حين تحمل نتائجها من الجانب التطبيقي منفعة مادية و من الجانب النظري إشباع للبحث العلمي. أما التجربة فلا تكون هي الأخرى علمية إلا إذا إستطعنا إعادتها في أزمنة و أمكنة مختلف.

تدخلت معلمة الإجتماعيات مستشكلة مرة أخرى:

ـ ولاكن أنت لم تبرز سوى عيوب كلا المنهجين...ماذا تعني بذلك؟

الأستاذ مبتسما:

ـ أقصد أن كلا المنهجين ليس كامل و شامل، هذا واضح.

معلمة الإجتماعيات مستنفضة بيديها:

ـ وماذا إذا كانا كذلك...نحن نود أن نعرف من هو المنهج الأكثر أصحية.

ـ لا تتسرعي... المنهج المثالي و الشامل و القادر على بناء المعرفة العلمية هو الجمع بين المنهجين السابقين.أي جعلهما منهجا واحدا و هو العقلانية التجريبية بكل بساطة. فكما فهمنا من نقاش الأستاذين أن التجربة لا يمكن أن تأسس المعرفة بدون الحاجة إلى النظرية و هذه الأخيرة لا تستطيع نفس الشيئ بدون تجربة، إذا فالجمع بينهما هو الصواب.

أستاذ اللغة العربية مفكرا:

ـ أنا أفهم الأن مذى قيمة مناهجكم ، ومذى أهميتها و مميزتها.لاكن لم أستوعب بعد معيار أي منها، ما هي مقايس هذه المناهج التي ستأذي بنا إلى المعرفة العلمية الخالصة أيها السيدات و السادة ؟

أستاذ الرياضيات متسرعا:

ـ البرهان الرياضي ! البرهان الرياضي هو معيار و مقياس التحقق من صحة أي فرضية،قبل قبولها نظرية علمية، وهنا نلاحظ أهمية الفرضية، إذ تبدوا كالأساس و الركيزة في هذا المنهج، ولذلك سأعيدها و أكررها، لا تجربة بدون نظرية. ولا نظرية تأتي بدون فرضية و لا فرضية تأتي بدون عقل، أي لا منهج تجريبي بدون منهج عقلي.

قالت معلمة الفزياء وهي ترمقه بنظرات إمتعاض:

_ ولاكن يا أستاذ هناك شيئ لا تعرفه...يكمن في أن المعيار التجريبي هو من يمنح نظريتك هذه،القوة العلمية و الأحقية بعد أن تستوفي شرطين إثنين. أولهما أن تخضع للتجريب كي نعترف بأنها علمية، ثانيهما أن تكون تجربتها قابلة للتكرار في أزمنة و أمكنة مختلفة. وإذا لم تستوفيهما فهذا يعني أنها لاتجريبية،بمعني أنك سوف تعيدها للمزرعة و تعطيها المزيد من التبن، أي أن تعيد صياغتها و تعديلها.

إحتقن وجه معلم الرياضيات و إحمر،فصرخ في وجهها قائل:

_أنت مجنونة! منهجك التجريبي هذا ناقص و عاجز، لقد نفضنا عنه كل غباره. لا أعلم من أين تفهمين، لقد قلت لك أن عجوزك الخرف هذا ضعيف. وهو الأن منهك جدا،فل تتركيه يغفو في سلام، لقد أخبرتك من قبل أن هناك نظريات لا يستطيع تجربتها.لما؟ لأنها تفوقه. كنظرية المجرات و الأكوان المتعددة و نظرية الإنفجار العظيم.هذه كلها نظريات في محل شك و حيرة. ولهذا الغرض بالضبط المنهج العقلاني يحاول الأن تطوير النظرية بإعتبارها النسق للمبادئ و القوانين التي تنظم ملاحظة الظواهر التي عجزت عنها التجربة.

إنتبه أستاذنا إلى أن النقاش بدأ يحتد مرة أخرى ،فبادر قائلا:

_ بصراحة زملائي الأعزاء أرى من الضروري لنا أن نشك و نبحث في النظرية مليا، وممارسة النقد الكافي عليها وذلك عبر العقل و التجريب أي المنهج التجريبي و العقلي. وهكذا نكون إتخذنا معيارا مناسبا و دقيقا. بحيث سوف نفصل بين النظريات التجريبية و الاتجريبية.بعدها ننزل بكل بساطة التجريبية منها إلى التجريب و إذا إجتازته ستصبح بذلك نظرية علمية قوية و صلبة تفسر و تبني المعرفة العلمية.

بدأ الأساتذة ينصرفون ، كان قد أوضح نقاط ضعف المنهجين ،بعدها طرح منهجه الشامل و دعمه بمعيار الشك النقدي، وهكذا إستطاع توضيح سوء الفهم و تفكيكه لبناء الحل الأمثل.

توجه إلى فصله بخطوات مسرعة حاملا حقيبته الممتلئة، وصل صفه وباشر يقدم ما إستطاع من علم لطلابه. كان يبذل كل جهده ،رغم إنخفاض عددهم ،لعله إنتبه إلى أنه لو ظل ينتظر حظور الجميع فلن يكون عليه سوى التهاون لأجلٍ غير مسمى،وقد يصبح هذا التعسف عادة وبعدها سيصعب عليه أكثر فأكثر التخلص منها.

لما دق جرس منتصف الدوام بدأ يلم أغراضه كي ينضم للأساذة في قاعة الإستراحة، كان قد جلب معه وجبته المكونة من خبزة فيها بيضتين مسلوقتين، كان قد إشتراها عند مروره ببائع طعام في الصباح الباكر. و في الوهلة التي كان سيقضم قضمة منها خاطبته معلمة الفزياء قائلة :

ـ رغم التركيب المركز الذي تقدمت به يا أستاذ،إلا أنك تجهل أن العلوم التجربية من فزياء و كمياء و جيولوجيا و غيرها،قد وصلت أوج إزدهارها و ذروة نهضتها بفضل المنهج التجريبي. لذا فوارد جدا أن إعتماد باقي العلوم له سوف يمنحها نفس الشاكلة من الإنجازات و التقدمات، ألا تعتقد ذلك؟
وتحديدا العلوم الإنسانية ،أنا أراهن أن إتباعها للمنهج التجريبي سيدعم بشكل هائل موضعتها.
كانت هناك عاملة تكنس الأرض بقرب الأساتذة، فسقطت كلمة المعلمة الأخير تلك في أذنها،فتساءلت على فورها بعفوية:
_ المعذرة ! ماذا تعني موضِعة يا معلمة ؟
فإستغربت معلمة الفزياء مجيبة إياها:
_ هي مجموعة من الإجراءات المنهجية يعتمدها عالم ما لجعل ظاهرة قابلة للدراسة.
حملقت عاملة التنظيف لبرهة في المعلمة ثم تابعت كنسها.
فبادر الأستاذ:
_العلوم الإنسانية معقدة جدا و متعددة الأبعاد،فهي تشمل البعد السياسي، الإجتماعي، البيولوجي، الأخلاقي، الثقافي و حتى الفزيولوجي. إضافة إلى أنها متداخلة جدا، فحتى لو أراد الباحث أن يعتمد منهج التجريب، فسيواجه صعوبة كبيرة، تكمن في هذا التداخل،بحيث سيجد الباحث نفسه هي الذات المجربة و موضوع التجربة في نفس الوقت.
قاطعته أستاذة الفزياء:
_ أنا قصدت أن يفككها و يحللها بغية جعلها معطى قابل للتجربة العلمية، كالدراسات التجريبية التي تجرى على عينة من الأفراد مثلا.
الأستاذ متفهما:
هذه هي المشكلة ! فهنا و بالضبط تكمن الصعوبة إذ يجد نفسه هذا العالم الذي يود إجراء التجربة على مجموعة من الأشخاص هو نفسه غير قادرا على الإنفصال عن مجتمعه، الذي هو موضوعه،...حسنا سأوضح لك.

مثلا، أنا باحث في علم الإجتماع و قد أثارت فضولي ظاهرة الإنتحار، وأود أن أدرسها بالتفصيل، فقررت الإستعانة بمنهج التجريب هذا ، لنفترض أنني علمت بمكان سيتواجد به فرد سيقترف الموت في حق نفسه، وجهزت كل ما أستطيع أنا وفريق عملي من معدات لمراقبة هذه التجربة ، حسنا كل شيئ جاهز، وها قد بدأ الفرد يقدم على إبادة ذاته، ألن تتحرك فينا شعرة إنسانية ، هل سنتركه يرتكب ذلك فعلا ؟ هذا ما قصدت يا معلمة، أرجو أن تكوني فهمتي الإختلاف بين علوم الإنسان و العلوم الأخرى.

معلمة الفزياء مستشكلة:

_ لا أنت لم تفهمني ! أنا تحدثت لك عن إمكانية دراسة الظاهرة الإنسانية بإعتبارها شيئ، بمعنى تجريدها من كيانها الإنساني، وبالتالي إعتبارها شيئ يقبل الدراسة التجريبية.

_ لقد أخبرتك أن هذا ليس ممكن، و حتى لو إستخدمناه كما تقولين فما سيحدث أن المجرب سيكون موضوع و ذاتا واعية مما سيجعل الهدف الأول هو إزاحة التمركز عن الذات و محاولة توجيهه للموضوع، لكن هذا ليس بالأمر السهل.

كان أستاذ مادة علوم الحياة و الأرض واقفا يستمع لهذا النقاش المثير للإهتمام و يبدو أن لديه ما يقول الأن:

_ أظن أيها السادة أنكم تعرفون التفسير؟ التفسير الذي يحيل على إرجاع ظاهرة كونية إلى عناصر جزئية لإعادة دراستها، وقد يحيل أيضا إلى التحليل و الشرح الدقيق لها. المهم أرى أن الظاهرة الإنسانية ليس مستحيلا أن تحصل على تفسيرات؟

إبتسم الأستاذ ثم أجابه:

_ ليس تماما ! هناك نظير له و هو الفهم الذي يفيد إدراك ذاتي لموضوع ما. أما في العلوم الإنسانية فيصطلح به البحث في نوايا و مقاصد الفعل الإنساني، التي قد تكون قابلة للتأويل أو الفهم، كلغة الجسد مثلا.لاكن ليس للتفسير، والسبب راجع لخاصية البينذاتية والوعي.

قاطعته معلمة الفزياء منفعلة:

_ بل يمكن تفسيرها ! يمكن دراستها من خلال إعتبارها أشياء و جعلها قابلة للتجريب، ثم نفسرها بعد ذلك. مثلا كسقوط الأجسام ، عندما نجرب ترك جسم، نلاحظ سقوطه و نستطيع تفسير الأمر أنه بسبب قوة الجاذبية.هكذا الأمر ، العثور على الأسباب و حينها ستبنى التفسيرات بكل سهولة.

إمتعض أستاذنا لأول مرة و هو في محضر هؤلاء الأساتذة، هل السبب ياترى هو أستاذة الفزياء هذه، بصراحة ليست أول مرة يناقش فيها أساتذة علوم، لاكن هذه مامشكلتها، ربما السبب عائد إلى إكمالها أخر مراحل الإنتقال؛ من الذات الواعية بذاتها إلى خادم يعالج المعلومات عبر صيغتها الكميائية و رموزها الرياضية، ياللعار! كيف يصدقون تحفيزات واهية و تشجيعات زائفة لدرجة تجعلهم يسخرون سنوات و سنوات من عمرهم لدراسة الهراء و الإفتخار بها، هل حقا يحبونكم كل هذا الحب أم فقط يحاولون محاكاة صناعة الروبوتات، لكن بطرق أقل تكلفة على ما يبدوا، كانت قد
جالت في ذهنه هكذا، بعدها بادر ليجب عن سؤالها:
_ العلوم الإنسانية تكتفي بتفسيرات تقريبية لبعض الظواهر، كما تنقصها الدقة لأنها أصلا عاجزة عن التفسير، ونتائجها غالبا ما تكون في مستوى من الوساطة بين ما هو نافع و مقبول، فموضوع العلوم الإنسانية يتمحور في الوعي، وكلنا نعلم عضمة هذه السمة المميزة للإنسان و مذى تعقيدها. لذا فلوا تقدمت العلوم التجريبية فلأنها أحسنت إختيار منهجها، أما العلوم الإنسانية فتحاول إعتماد الفهم التأويلي كمنهج مساعد وليس أساسيا، أما بالنسبة للتفسير فغير ممكن، أولا لأن الظواهر الإنسانية ليست دائما توجد بها علاقة سببية، ثانيا لأنكم لو إستطعتم تفسير الطبيعة وإعطاء عناصرها تحليلات دقيقة، فالأمر لن يكون سهلا أو حتى ممكنا عندما يتعلق بالإنسان.
حدج معلم اللغة الفرنسية أستاذنا ببصره ثم قال:
_ الأستاذ يقول لكم أن مناهجكم ليست صالحة للعلوم الإنسانية لأن الأمر حسب فهمي... كمباراة كرة قدم، بحيث يكون العالم طرفا في المباراة و حكما أيضا، وهذا أمر شديد صعب.
إبتهج الأستاذ لسماعه أول قول مأيد و حكيم:
_تماما يا معلِّم ! أحييك على هذا المثال، فالإنسان هو المصدر المطلق و الغاية، فليس من المعقول بثاثا وضعه موضع الوسائل أو الأشياء لإجراء تجربة عليه. علاوة على حاجزي الوعي و البينذاتية القائمين كالجبلين الشامخين أمام هذه التجربة و التفسير. خلاصة القول أن العلوم الإنسانية تختلف كثيرا وصعبة جدا مقارنة مع باقي العلوم.

إنقضت الفسحة و كان قد أنهى وجبته،فعاد أدراجه لقسمه كي يتم الحصة،مرت هذه الأخيرة بتعثرات طفيفة نظرا لإنخفاظ مستوى تركيزه الراجع لعملية إسترداد مقتطفات من النقاش الفارط، مما سبب له عدة هفوات من الشرود و السهو المتكررة أثناء الفصل.

دق جرس نهاية الدوام فإحتدمت الممرات بالطلاب العابرين،و الهاربين و الباعة المتجولون الصارخين بأسماء أصحابهم ،وكأي سوق شعبي ما عليك سوى أن تحرص على حقيبة نقودك و تتحسسها كل مرة إلى أن تهدأ العاصفة، شيئ طبيعي فالساعة الأخيرة تعني نفاذ الطاقة الغذائية لذى معظم المتعلمين مما يجعلهم ينفرون من أي نشاط مهما كان إلى أن يتم شحنها. لما كان مغادرا وإقترب من الباحة سمع صوت ينادي عليه، فلما إستدار وجدها معلمة الفزياء تتجه نحوه مهرولة، فتوقف ينتظر، كانت تبعد عنه فصاحت من مكانها:

_ أستاذ ! أستاذ ! للرأي دور في بناء الحقيقة ، أليس كذلك ؟ ها أستاذ!

لم يسمع الأستاذ جيدا سؤالها فرد عفويا:

_ نعم ! نعم ! إقتربي لا أسمعكي جيدا.

لما إلتقطت المعلمة كلمة "نعم" إستدارت تركض إلى قاعة المعلمين من حيث أتت، فإستغرب الأستاذ، بعد برهة ظهرت ثانية، لكن هذه المرة مع جمع من الأساتذة يتبعونها ويتجهون نحوه، فزاده ذلك إستغرابا.

لما وصلوا قالت معلمة الفزياء بلكنة تحدي:

_ هاهو! الأستاذ أيضا يأيد أن الرأي يرقى لمستوى الحقيقة، الشيئ الذي عارضتموني عليه كلكم و إدعيتم أن أرائي في القضايا و المسائل لا تملك أساسا من الصحة.

إندهش أستاذنا فقال:

_أنا لم أسمع أصلا سؤالك حينها، فكيف لي أن أعطيك جوابا، وما هذا الذي تقولينه؟ الرأي دائما خاطئ فهو تفكير سيئ جدا،بل لا يرقى لدرجة التفكير حتى، هو مجرد تعبير للذات عن حاجياتها و منح الأشياء معاني حسب فائدتها، لذا فإذا أردنا الحقيقة ،نحن مجبرون و مفروض علينا التخلص من جميع الأراء، فهي دائما مغلوطة ولا تقوم سوى بعرقلة و تشويش وصولنا للحقائق يا معلمة.

بادر أستاذ اللغة العربية:

_هذا ما أخبرناها به، فالرأي مجرد معرفة عامة تكون لذى الأفراد، ومن غير الممكن أن تأسس معرفة ركيكة حقائق متينة، لذا فالحقيقة هي التي تبنى عن طريق العقل و الفكر السليم.

بدت على معلمة الفزياء علامات إنزعاج و توثر، فقالت:

_ لا يا سادة ! لا ! أنتم لا تفهمون قصدي، ولا وجهة نظري...أولا نعلم كلنا أن الحقيقة هي مطابقة الفكر للواقع و مطابقته لذاته،ثانيا الرأي، وهو ما أظن أنكم لا تميزون، بحيث يشمل إعتقاد صحة أو خطأ قول ما، إذ الرأي لا أقوله إلا عندما أكون متأكدة من صحته وهكذا تكون له علاقة وثيقة بالحقيقة.

بادرت معلمة الإجتماعيات:

_ الحقيقة المبنية على الرأي مرفوضة يا معلمة، فهي تكون فقط وليدة لترسبات من الأفكار و الأحكام المسبقة و التي تعج بالمغالطات...هل تعلمين ؟ الحقيقة عند تواجدها تكون بذهية و بارزة، بمعنى أخر ما هو حقيقي و صحيح نستطيع تميزه بسهولة.

قاطعتها أستاذة الفزياء:

_ كلا !أنتي لم تفهمي أي وزة...

قاطعها أستاذ الرياضيات بسرعة:

_حين يطرح سؤال، الفكر العلمي وحده يمكنه من الإجابة عليه، ليس الرأي، وإذا تعذر الجواب العلمي عليه فلا توجد معرفة و لاتوجد حقيقة، ولا مكان للأراء، كله يبنى.

بدأت معلمة الفزياء تحملق في الوجوه:

_ ليس صحيح! هناك إلتباس ! هناك خطئ! شيء خاطئ في قولكم، أنتم لا تحاولون فهمي ، أنتم متعصبون.

أستاذ اللغة الإنجليزية متفهما:

_حسنا، يا معلمة الرأي مرفوض عند تعلق الأمر بالمعرفة العلمية ،لاكن في مواضيع أخرى ليست ذي أهمية قد يكون مسموح به و مقبولا، أما العلوم لا، لما؟ لأسباب ذكرها الأساتذة من قبل، أما بشأن الحقيقة فلبلوغها نحتاج إلى عقلنا و قلبنا معا، لما؟ قلبنا لنشعر به و عقلنا لنستدل به. علاوة على غريزتنا، فكل هؤلاء حين يتم توضيفهم بالطريقة الصحيحة، يمكنهم أن يقودون بنا للحقيقة، وليس الرأي هو من يفعل ذلك إذ هو لن يقودنا إلى للهراء، فهو مجرد سطحية قول وجهل معناه حتى.

قاطعته معلمة الفزياء منفعلة:

_لا! لا! الرأي أيضا يقدر على بناء الحقيقة ، إنه لجذورها و أنتم لا تعلمون، والحقيقة لا تأسس بمعزل عنه. فمثلا،نظرية كوبيرنيكوس التي أعدم بسببها، التي أفادت في أن الأرض تدور حول الشمس، لقد كانت مجرد رأي منه ولاكنه دافع عنه، مما أذى بالكنيسة إلى سلب حياته، وبعد فترة أثبت العالم غاليالي أن رأيه كان مصيبا و حيقيا.

بادر معلم الرياضيات مخاطبا إياها:

_جيد ! جيد ! الأن سوف تخبرينا حضرتك عن معيار هذا الرأي الذي تعنين و سيخبرنا هؤولاء السادة عن معايير الحقيقة.

تساءلت معلمة الفزياء في إندهاش:

_ معيار!

أجابتها معلمة الإجتماعيات مباشرة:

أجل ، مرجع تصنيف القضايا حسب نسبة خطئها و صحتها.

أستاذ اللغة العربية:

ربما بدأت تستشعر معلمة الفزياء الأن أنها تسير في طريق مسدود.

بادر أستاذنا:

_معيار الحقيقة يتجلى في الحدس،والمقصود به المعرفة المباشرة بالشيئ، إضافة إلى الإستنباط، والذي يعنى به إستنتاج ضرورة أشياء أخرى، و هنا نحن لا نحتاج لأي حواس أو واقع كي نتحقق من هذه المعرفة ، لاكن في حالة لم تكن هذه الأخيرة بذهية و مباشرة و مميزة من تلقاء نفسها، فهنا وجب إخضاع المنهج الشكي، و الشك في حقيقتها.

أخذ أستاذ علوم الحياة و الأرض الكلمة:

_من جهة أخرى، إذا أردنا التحقق من حقيقة معرفة ما، هل صائبة أم خاطئة، يلزمنا فقط تجربتها في الواقع الملموس و التأكد منها بكل بساطة.

بدأت معلمة الفزياء تتلعثم:

_ لاكن ال...لاكن الرأي...يوجد معياره...إنه ال...

بادرت معلمة الإجتماعيات:

_لاكن أليست الفكرة الصحيحة و الحيقية معيار ذاتها، مثلا معرفتي بأن السماء زرقاء، هي حقيقة صحيحة و واضحة من تلقاء نفسها، أي أنها تكون بذهية تمام كما قال أستاذ الفلسفة، ولاتحتاج للتجريب، أما الرأي فهو مجرد إعتقاد في صحة و خطأ المعرفة، و إذا حاولت معلمة الفزياء أن تفكر في معيار للرأي و لنفترض أنه التجربة ، فسوف تجد نفسها وسط تناقض إذ الرأي يقابل الفرضية التي تخلص إلى نظرية ثم بعدها إلى التجربة. أما إذا فكرت في منهج أخر فلن تجد سو العقلانية وهو الذي إذا أخضعنا له الرأي فسيزول لأنه كما قال أستاذ الفلسفة الرأي لا يرقى لأن يكون تفكيرا حتى. وبعدها سيلزم إلزاما بناء المعرفة الحقيقية.

أستاذ الرياضيات متفهما:

_ تماما! وفقت في التحليل يا معلمة, المعرفة الحقيقة تكون ظاهرة و بذهية من النظرة الأولى ، أما المعرفة المبهمة أي النظرية فتحتاج إلى إخضاعها للمنهج العقلاني والمنهج التجريبي.

قاطعته معلمة الإجتماعيات:

_لمنهج العقلانية التجريبية! هل نسيت لقد توصلنا له. ولاكن هل حقا لهذه الحقيقة العلمية قيمة؟

أخذ الأستاذ الكلمة:

_ لطاما مثلت الحقيقة السر العميق، مما جعل الناس بتعدون عنها ولا يبالون بها، ويندفعون إلى ماهو رائج و سهل الوصول ،بمعنى أخر صارو تائهون عنها، غارقون في بحر متاهتهم، و هكذا فضل البشر أن ينسوا وجود الحقيقة، مما أذى لإختفائها هي الأخرى، وعليه غدت الأن فاقدة قيمتها.

أعقبه معلم التربية الإسلامية:

_ بالفعل، فالناس لا ينجذبون إلى لمعرفة الحقائق التي قد تكون فيها منفعة بارزة لهم، ولست الحقائق العظمى التي تبقى غاية في ذاتها.

بادرت معلمة الإجتماعيات:

_هذا صحيح، فالحقيقة من المفروض أن نعتبرها الغاية ذاتها، بينما نجد العكس فهناك من يستعملها كوسيلة، بل ويعتبرها كذلك فعلالتحقيق غايات أخرى.

كان أستاذ التربية البدنية يقف منذ البداية عابس الوجه مربع اليدين و ها قد أفلتهما الأن وتدخل بشراهة ليقول ما قد إنفجر في ذهنه:

_أها ! لا حقيقة ! لا قيمة ! لا شيئ يذكر ! فقط تثرترون و تتفوهون بالهراء منذ الصباح، كأنكم الأمة الفاضلة ، كأنكم في النعيم، كفاكم أوهاما ! الحقيقية ترتبط فقط بأصحاب السلطة و المتحكمون في شؤون الدولة، فهي أصلا من إنتاجهم و من إنتاج الطبقة المهيمنة. فهؤلاء هم من ينسجون خيوطها ليسحقوا أكثر وبسهولة أكبر الطبقة الفقيرة ،فما من حقيقة أو قش، لا توجد إلا إيديولوجيات تخدم مصالحهم.

حل صمت ثقيل على جمع المعلمين ثم كسره أستاذ التربية الإسلامية قائلا:

_لا حول ولا قوة إلا بالله!

الفصل الرابع

بعد إنقضاء أسبوع على الحادثة، كانت الراحة و الألفة اللتان هشمتهما قد بدأتا تعمان ثانية، و غدى الإطمئنان يسود ساكنة المملكة من جديد، وهاهو ذا يستهل يومه بنشاط وحيوية، فأتى على قطعة خبز و إحتسي كوب من القهوة الساخنة، التي كان قد طهاها بنفسه، ثم تناول حقيبته و لاذى بالذهاب.

لاحظ أن عدد طلاب فصله قد بدى كاملا مكتملا، مما يعني أنه لم يبقى مجال لإدخار أي طاقة و أن وقت الجد و الإجتهاد بالفعل قد حانا، فباشر يكتب على السبورة و يشرح الصورة و يوضح الأمور، يوزع الكلمة على التلاميذ المشاركين و ينبه المشوشين مرددا ؛الصفحة العشرين يا مغفلين!

فجأة طرق أحدهم باب القسم، كان حارس المؤسسة، وقد حمل دعوة لحضور إجتماع سيعقد يوم السبت، كان الأستاذ يعلم جيدا أن هذه الإجتماعات تهم أمورا لها علاقة بالنظام الجديد المنتظر؛ الذي سيتم إصداره قريبا.
فتحمس جدا بخصوص هذا الخبر، و لاسيما حين إنتعشت ذاكرته بوعود الإضافات المالية التي تلقوها من لدن أحد كبار الدولة، فوضع إمضائه على الأوراق و أعادها.

تبقى يوم واحد للإجتماع، كان قد علم من أحد الزملاء أن ما سيكون محل نقاش فيه هو فعلا بعض المقتطفات من وثيقة مواد النظام الأساسي الجديد، فبدأ يساوره الفضول و التوق للإطلاع والدراية بها، أمضى ليلته يحلم بحيازته مكتسبات و زيادات مالية ضخمة مما جعل لعابه يملئ وسادة نومه.
في الصباح أسرع لموقف الحافلة، إكتشف أنه قد أتى مبكرا فغدى ينتظر إلى حينها، كان موعد الإجتماع عند الساعة الحادية عشرة...بدأ حصته بشغف ظاهر، لاكن وقع السرعة كان باديا عليه.

حانت ساعة الإجتماع، الجميع يتواجد بالقاعة، تم إحضار الكراسي ألازمة؛ أخذ المعلمون مقاعدهم، إفتتح المدير قائلا أن نسخة النظام الأساسي قد قاربت على الإكتمال، وأنه توصل ببعض المقتطفات منها ؛مواد مكتوبة من النيابة العامة سيشاركها معهم.

أستاذ التربية البدنية: وما الذي سوف تمنحنا هذه الجشعة؟ لا شيئ ! فقط تكرار الكلام و محاولة جعلنا نعيش في الأوهام...إذا كنتم تنتظرون حقا الخير من الدولة ، فأنتم بصراحة تحتاجون علاجا، فالدولة هي الشر عينه.

معلمة الإجتماعيات: بل هي مجرد جماعة كبيرة من الناس تسكن بلاد ما، وتتمتع بالإستقلال الذاتي، كما لها أجهزة و مؤسسات تمارس الحكم في بلدها.

أستاذ التربية البدنية:بل تمارس القهر في بلدها...أنت يامعلمة لا تعين ماذا تقولين.

أستاذ اللغة العربية: غاية الدولة إجابية، تكمن في تحقيق السلم والأمن، فهي إنبثقت بذل قانون الغاب الجنوني، الذي كان فيه القوي يأكل الضعيف. فإجتمع الناس وإقترحوا بعد العذاب و الفوضى التي دامت لألفيات السنين أن يستعينوا بالدولة، كنظام مؤسساتي تشرف عليه فئة من الأفراد، يحمون و يحفظون الأمن العام ويتم تزويدهم بكل ما يحتاجون، وعليه تصير لذى هذه الفئة مشروعية التدخل بين القوي و الضعيف لتسوية قضايهم و شؤونهم بواسطة القانون العادل.

أستاذ اللغة البدنية: أنت مخطئ يا أستاذ، لو كان الأمر كذلك لما وجدت أشخاصا يعملون لسعات طوال مقابل أجور زهيدة، لما وجدت الفساد و الجريمة، لما وجدت الرشوة و الزبونية، لما وجدت المملكة مفعمة بجميع أنواع الفواحش. اذ ما تفعله الدولة ليس سوى التحكم في الشعب وجعله كالدمى، تحركه كما تريد من خلال قوتها و قانونها ،خيطاها الخاصان و ترقصه كما تشاء ليخدم مصالحها هي.

معلم الرياضيات: كلا ! الدولة ليست غايتها جعل العاقل حيوانا أو ألة في يدها من خلال حكمها له، بل فقط تهدف لإتاحة فرص أفضل لبدنه وعقله كي يشتغلا في أجواء أحسن يسودها الأمن و السلم، فالحرية هي الغاية الأولى و الأخيرة للدولة.

معلمة الإجتماعيات: هذا صحيح، فغاية الدولة ليست إرهاب مواطنيها و قهرهم، وإنما غايتها هي تحقيق الحرية الخالصة لهم.

أستاذ التربية البدنية:(يقهقه) ماذا؟ يبدوا لي أنكم مغرمون جدا بدولتكم هذه، حسنا ! حسنا! أخبروني لماذا ياترى ترفع سعر البنزين و السكر و غيرها من المواد، أليس هذا بغرض إثقال كاهل مواطنيها وجعلهم غارقين في أزمات و مأازق مادية بينما تملأ هي جعبتها بالنقود.

الأستاذ: رفعت من ثمن البنزين لأن المواطنين لا يستجيبون إلى مختلف نداءات الحفاظ على البيئة و محاربة التلوث الهوائي، فمنذ زمن و النداءات تطالب بتقليل إستهلاكه،لاكن دون جدوى. والسبب الإقبال الهائل على السيارات، مما يأذي إلى إلحاق الضرر بالبيئة و إنتشار الأوبئة والأمراض المعدية و المزمنة.

أستاذ التربية البدنية: وماذا عن السكر ماذا يفعل و الزيت وغيرها من المواد...؟

الأستاذ: كلها متعلقة بأسباب مقنعة، فالسكر أكثر المواد مبيعا في المملكة و أكثرها تسببا في الأمراض، و المرضى يحتاجون للعناية الطبية المركزة،العلاجات و الأدوية الباهظة الثمن، لذا فالدولة تحاول أن تكافئ بين سعر هذه المنتوجات المضرة و تكلفة مرضاها بناء على عدة إحصاءات و دراسات لعدد من المنتوجات المضرة الأخرى كالسجائر و الكحول.

أستاذ التربية البدنية: هذا هراء ! الدولة فقط تسعى لحصاد ما يزرعه المواطنين.

الأستاذ: الدولة تهدف لتحقيق المبادئ الروحية السامية، إنها الإرادة الجوهرية الكامنة غي الروح الأخلاقي، لاكن المشكل أننا نخلط بينها و بين المجتمع المدني، فهذا الأخير هو المسؤل عن الأمن و الحماية، بينما هي فرمز لا يمنحنا سوى الشعور بالمواطنة، وتمثل الجوهر الأخلاقي الذي يدعوا المواطنين إلى الإنسجام والإلتحام الروحيين.

معلم التربية البدنية: عن أي إلتحام أو إزدحام تتحدث، أنا أقصد لك بطش السياسة...هل تفهم معنى السياسة...؟

معلمة الإجتماعيات: جميعنا نعلم! إنها نمط تدبير شؤون المواطنين داخل بلد معين.

أستاذ التربية البدنية: (يضحك) قد ينفجر قلبي من الضحكة القادمة، هل تدرين يا معلمة...؟ لديك ذاكرة خارقة، لكن عقلك...أتمنى له الشفاء العاجل، فالسياسة تعني البطش و التسلط، إنها مصدر و جذر الصراع دائما...

فالمسؤولون السياسيون يستعينون بمختلف الوسائل لتحقيق أهدافهم، قد يخرقون القانون ويطبقونه، كله على هواهم و يجدون الأعذارا دائما، وذلك لأنهم يتميزون بالمكر و الخداع، و يبررون كل ما يفلونه بالمصلحة العامة.

أستاذ اللغة العربية: لا ! لا ! السياسة تقوم على مبدئ الديمقراطية و فصل السلط، كلنا نعرف ذلك صحيح ! فالسلطة التشريعية هي التي تضع القوانين، و التنفيذية هي من تطبقها، ثم القضائية، وهي من تحكم بالأمور المنفذة في حق المواطنين. لذى فلا أساس لما تقول من الصحة، ولاوجود لأي مكر أو زعتر بل القانون و القانون فقط.

معلم التربية البدنية:(يرمقه بنظرات إستخفاف) تبدو لي يا أستاذ جاهل الكثير من الأمور، فهذه السلطات التي تصدقها و تأمن بها كما تحفظها عن ظهر قلب قادرة على إنشاء شبكات فيما بينها، غير ،قانونية، تمارس مختلف الأنشطة الأأخلاقية في حق الشعب، كتهريب المخدرات إليه على سبيل المثال وبذلك تصير تقضي عليه و تهدمه تهديما و ليس توفر له السكينة.

معلم التربية الإسلامية:(يتمتم) إلعن الشيطان يا أستاذ ! هذه الأفكار من وحيه لعنه الله، السياسة ليست بهذا الشكل، بل الشيطان لعنه الله يصورها لك هكذا،....هي عبارة عن علاقة تجمع ملكا بشعبه، وهذه العلاقة تكون صالحة، ناجحة إذا كان العدل و الأمان في الدولة. مما يجعل الشعب يكن الولاء و التقدير لملكه، وتكون العلاقة سيئة إذا غاب هذا العدل و الأمن، بحيث سيصبح المواطنون خائفون كارهون لملكهم، وقد يلجؤون لإقتراف الجرائم و خرق القوانون مما سيسهم في فساد الدولة و خرابها. لذا وجب على الملك أن يكون حادقا و حكيما، له بصيرة بخبايا الأمور لإنجاح هذه العلاقة و بناء الدولة الناجحة.

أستاذ التربية البدنية: الشيطان بريئ... أما السياسة فلا، غير صحيح ما تقولون ، مخدوعون تبدون لي، تم تجنيدكم بسهولة، السياسة مبنية فقط على الإستبداد و التسلط و العنف الأسود، فهي تستغل ،القانون من جميع ذيوله، بل و تزرع أخرى جديدة عند الحاجة، لتكبل الشعب بقوة و إحكام كبيرين فكل ما تتميز به هو العنف و القهر المطلقين و أنتم لا تدرون.

أستاذة المعلوميات: (مستغربة) لاكن كلنا نعلم أن العنف المادي خاصية مميزة للدولة، ذلك لأنه ضروري بطبعه. فلو تخلت عنه لإختفت بدورها، وحلت محلها الفوضى و قوانين الغاب التي لا ترحم ، فمن خلاله يتم قمع الأعمال الغير قانونية و الحد منها كما العقاب عليها.

معلمة الفزياء: (منفعلة و متسرعة) لاكن العنف هو ضد الرفق و يحيل إلى القوة الغير مشروعة و الغير قانونية، كما أنه كل ضرر يلحق بشخص ما، لذا ألا تخرق الدولة هكذا القانون بإقترافها إياه في حق شعبها ؟

أستاذ التربية البدنية: (ينظر إليها بإعجاب) بالطبع ! تماما ! إنها تعنف شعبها بقساوة و دون هوادة لأسباب واهية، كفرض غرامات ضخمة عليه، كغرامة غياب الخوذة على الدراجة أو الأضواء و المرآة أيضا، وغيرها من الأشياء العديد الصغيرة، التي تقحم أنفها فيها دائما، فقط لسلب رزق المواطن و إضافته إلى ثروتها المحرمة.

أستاذ اللغة العربية: لاكن ذلك ضروري، إنه من أجل سلامتك، فإذا أهملت تلك الأغراض قد يحدث و تتعرض لحادث سير، و ستحميك بالتأكيد.

أستاذ التربية البدنية:(منفعلا) و نقودي ! و نقودي ما ذنبها أن تنهب مني ؟ أنا لم أقترف حادثة بعد، فليحذروني أو يعطوني إنذارات، تم يتركوني، لو كانوا حقا يهتمون بسلامتي، لما الغرامات؟ أرأيت ! لأنها السياسة، التي لا تقوم سوى على العنف و المكر اللعينين.

أستاذ اللغة الإنجليزية: ومع ذلك، فالعنف المادي الذي تلجئ إليه السياسة، لا يضاهي تمركزها على الأخر الرمزي، فهو من أخطر الأساليب التي تمارسها الدولة الحديثة عبر مختلف أجهزتها، كالإعلام، المدارس و مواقع التواصل، حيث أن هذا العنف الرمزي غير ملحوظ، ويحدث بموافقة المواطنين كما أنه الأكثر فعالية من الأخر المادي.

معلمة الفزياء:(مستشكلة التعبير) لاكن ما هو العنف الرمزي ؟

أستاذة المعلوميات: (بصوت هادئ) هو مختلف الأضرار الاحقة بشخص ما دون الفزيائية منها، بمعنى قد تكون أضرار نفسية غير مباشرة.

أستاذ اللغة العربية: لذا فالمجتمع السياسي يستفرد بمفهوم الشرعية أي الصلاحية و الإجماع بمعنى الديمقراطية، فنحن من جعلنا هؤلاء الساسة، من خلال التصويت و إختيارهم بالأغلبية، بمعنى لو كانوا فئة تضغط و تقهر الشعب و ليست تسير و تدير أموره، لزالت منذ زمن، فكما نعلم، الإنسان يتميز بتجاوز وضعه و الرقي بذاته أي لو كان مقهورا لما ظل كذلك، لكان تخطى أزمته و إبتكر حلولا بديلة.

معلم الرياضيات: فعلا ! فهي مؤسسات لأجل المواطنين و فضاءات و خدمات عمومية كلها لأجل المواطنين و لمصلحتهم، فليس هناك أي إختلالات و حتى إذا وقعت فيتم علاجها و تصحيحها حسب القانون.

أستاذ اللغة الإنجليزية: (يخاطب معلم التربية البدنية) و العنف الذي تروج له و تحتج عنه فأصلا ليس فعَّالا لحل العديد من المعضلات بل لا يساهم إلى في تعقيدها و تضخيمها، لذا فالدولة إختارت إعتماد أسلوب الضغط النفسي و النقد الأدلوجي على الأفراد المتهاونين و الكسولين من شعبها ،لحتهم على القيام بالواجب، و أيضا كي تخيف و تمنع المقدمين على إقتراف جرم ما.

أستاذة المعلوميات : أي أن هدفها من العنف فقط إرهاب و تخويف المواطنين للإبتعاد عن ماهو لاأخلاقي، فالسياسة إذن تقوم على شكلان من العنف، المادي و المعناوي. وكلاهما ضروري لها، فبفضلهما تستطيع التحكم بالشؤون و الأمور التي غايتها الأسمى هي صيانة و حفظ حياة المواطنين و توفير فضاء أمن و مثالي لهم.

معلمة الإجتماعيات: إذن فالعنف ليس غاية الدولة،...هو مجرد و سيلة لتحقيق العدالة.

أستاذ التربية البدنية: (صارخا) لا ! أبدا ! كل ما تتفوهين به هراء على هراء و خزعبلات، السياسة فقط تنهب منا، و تكبح عنا خيرات و ثروات الطبيعة، الطبيعة الغنية بشتى أنواع و أشكال الثمار، إنه لوجب حتما إستعادة حقوقنا الطبيعية، وإستعادة حريتنا الكاملة في التصرف فيها كما نشاء دون تدخل فلان أو علان.

معلم اللغة الفرنسية: هذا منافي للمنطق يا أستاذ، الحق الطبعي المحيل إلى الحرية المطلقة و الإستخدام الرسمي للقوة، لن يساهم إلا في إفساد كل شيئ، فبسببه ولازال الأساتذة يكررونها دشنت الدولة.

معلمة الفزياء : (تشير إلى أستاذ التربية البدنية بعينيها) ما ذكر الأستاذ غير بعيد عن المنطق كل هذا البعد، فالحق الطبيعي يبدو مخصصا لحرية فعل أي شيئ أو المتناع عنه إراديا، مثلا قطع أشجار الغابة أو عدم قطعها، فعل إختياري. أما القانون فيلزمنا بفعل شيئ أو الإمتناع عنه، أي إلزاما. بحيث يمنعنا من قطع الأشجار دون الحصول على ترخيص لذلك، لذا فأنا أرى أن إسترجاع الحق الطبيعي لن يكون بالشيئ المضر لنا.

أستاذ اللغة العربية: (إتجه نحوها بناظريه في نفس اللحظة) هل أنت على مايرام ؟ ما هذا الهراء ؟ الحق الطبيعي عمره كان مطلبا و لن يكون أبدا، إنه كما لو كنت ترغبين في الإنتحار، إنه الخراب نفسه، وإذا كنت لا تفهمين المسألة من زاوية أن الشخص مهما بلغت قوته فسوف يضعف و بعدها لن يعود في وسعه حفظ حريته أو حقه، فالمشكلة منك. إذ تكون صلاحية الحق الطبيعي قد إنتهت، و سيسلب إثر إنتهائها كل مايملك من قبل شخص أخر أقوى منه و يخضع له إكراها، لذا فمن الصواب و الحكمة إقرار البشرية مشروعية القانون بإعتباره المفتاح الوحيد للحياتها السلمية و الحقوقية.

أستاذ اللغة الإنجليزية: هذا ما لاشك فيه ! فالحق الطبيعي لن يعود بنا سوى إلى زمن الجاهلية، رجل الغاب، الهرج والعنف. اللواتي سيؤذون بنا فقط إلى منعطف الحروب الأهلية الدائمة.

أستاذ التربية البدنية: (يهز يده عليه بإحتقار) هذا فقط في مخيلتك الخصبة، أما الواقع فشيئ مختلف، وماتقوله أصلا قائم في يومنا هذا منذ عقود و عقود، فالفرنسي النتن يتحكم في الإقتصاد الوطني و يهيمن على جل المصانع الكبرى و الميناءات وحول لغتك إلى تلاصم مسخ و أنت تكنس له طريق العبور بكل سرور و تغرد لي هنا لحن العدالة بكل وقاحة، لاكن ما عساي أخبركم و أنتم القش في عقولكم، فلوا كنتم تعون من يأخذ و يسلبكم ملككم و حقكم لما تحدثتم بهكذا سذاجة، لا تدرون عن الثروة المعدنية أين تذهب، لا الثروة البحرية أين تذهب، الخضار، الفواكه، و ليس هناك إكتفاء ذاتي حتى، أين تذهب كل هذه الثمار و الثروات ...؟ تذهب لليهود ! و أنت تمسك بالسفود، إنتظر هطول المطر ! سوف يهطل ! سيهطل قريبا على قشك...

معلمة الإجتماعيات: ما تقوله لا مغزى له!

أستاذ التربية البدنية: (رمقها بعداء) أنت من لا معنى لها ! أنت يا غافلة، لا تعين حتى حقوقك.

الأستاذ: بفضل تجاوز الإنسان حالة الطبيعة، إستطاع أن يبني الدولة. التي مكنته من أن يصير متزنا بعد أن كان وحشيا بربريا، وأن يصير رجلا بعد أن كان بليدا حيونيا، و أخيرا أن يكتشف ذاته العاقلة ! بعد أن كان ميالا خالصا، لا يبالي إلا بإشباع كافة و جُلِّ ما يخطر له من شهواته و رغباته. لقد جعلته ،الدولة و القانون يروض عقله أحسن ترويض، في مقابل سلبه فقط ذلك الحق الطبيعي عديم الفائدة فالدولة تمثل الإرادة العامة و الديمقراطية، إنها الضامن الوحيد لحماية و حرية الفرد و حفض ممتلكاته.

أستاذ التربية البدنية: لن يقنعني أي منكم بسخافاته، أنتم ذوي البصيرة العمياء، لا ترون الحقيقة، لا ترون غياب العدل، لا ترون غياب المساواة بين الفقير و الغني، لا ترون غياب إنصاف المظلوم، لا ترون أي شيء.

أستاذة المعلوميات: مخطأ ! دولتنا تنظر للناس سواسية و تحكمهم على هذا الأساس، إنها منصفة وعادلة ولا تقوم إلا على الحق، فنحن أكِلون ،شاربون ، لدينا مأوى و كله في أحسن ما يرام و لتعش الدولة.

ستاذ التربية البدنية: (ربع يديه بإمتعاض) ...أه حقا !

معلمة الإجتماعيات: يجب أولا معرفة أن المساواة هي العدالة الجماعية، بمعنى إسداء لكل ذي حق حقه و عدم التميز بين الأفراد في ذلك. أما الإنصاف فيحيل إلى العدالة التوزيعية، أي إعطاء كل شخص ما يستحق دون زيادة أو نقصان. فهما يختلفان لاحظتم ؟

أستاذ التربية البدنية: (يفلت تربيع يديه محملقا فيها) باالله عليك بماذا أفدتنا أنتي الأن ؟ وإذا كانا يختلفان, ما المشكلة ؟ نحن نستظهر منذ الفجر غيابهما الكلي في دولتك البئيسة، يا وجه البؤس، من أين تفهمون!

معلمة الإجتماعيات: (منصدمة من قوله و محرجة) أنا وجه البؤس ...؟

أستاذ التربية البدنية: (ساخرا) أجل و جه البؤس و المعاناة، أنتم النساء أصلا أكثر فئة مظلومة، مدعوس على حقوقها، دائما تشتكون من التحرش و العنف الزوجي، ولا أحد يلقي لكم بالا، القانون نفسه لا يفعل سوى القيام بالرقص أمامكم رقصة الشيطان و عمره كان في صفكم...يالا المهزلة!

الفصل الخامس

نهضت معلمة الإجتماعيات من مقعدها و عيناها عليه يحملان مشاعر مختلطة من الكراهية و الإستنفار، فغادرت قاعة الإجتماع...أسرع أستاذنا يلحق بها كي يطمئن عليها و خوف من أن ،ترتكب شيئ في حق نفسها، وجدها توقفت عند أحد الأقسام الخالية، كانت المسكينة تذرف الدموع حاول أن يواسيها عبر التربيت على كتفها، لاكنها صرخت في غصة:

_ مجنون ! إنه مجنون ! يجب عليهم وضعه في مصحة عقلية و ليس في مؤسسة تعليمية.

_ أجل ! إنه جاهل لا يدري ماذا يقول ! لا تهتمي له، إنسي تراهاته.

_ إنه غبي ! لا يفهم أن العدالة كإنصاف تبقى غايتها مراعاة التفاوتات و جعل التكافئ يلج بين جميع فئات المجتمع. أما المساواة فتحقق حين يكون كل فرد لا يعرف مكانته سلفا في المجتمع، عندها لن يحتاج أي أحد أن يدافع بمبادئه كي يتم تحسين حاله و وضعه. أما الأن فهي سائدة بالفعل، فنحن متساوون.فمثلا طلبة المدرسة الخصوصية و طلبة المدرسة العمومية إنهم متساوون و متكافؤون في جُلِّ الفرص، إذ لا يوجد أدنى فرق في المحددات، و عليه فالإنصاف و المساواة متوفران في دولتنا.

_أجل إن دولتنا عظيمة لكن أمثاله لا يعترفون بالخير أبدا، إنه من ناكري الجميل و المعروف، الذين لايجيدون سوى التذمر و الإستياء في أي فرصة أتيحت لهم.

أمسك بيدها و عادا معا إلى قاعة الإجتماع...

أستاذة المعلوميات: بل المساواة شرط للعدالة ! فحين يعامل جميع الناس بشكل متساوي في معزل عن التمييز العنصري أو الفؤوي يعم الإنسجام و السلم، كما أنّ القانون العادل هو الذي يعتبر جميع الناس سواسية في الحقوق. لذا فشرط العدالة هو المساواة.

أستاذ اللغة العربية : لاكنها غير كافية لتحقيقها، لتحقيق العدالة نحتاج للإنصاف، فهو الذي يمنح إستحقاق الحق لصاحبه، و لكي يسود الإنصاف، وجب توفر الإرادة السياسية غير الإستبدادية، و القوى التي تخدم مصلحة المواطن كالنقابات و الجمعيات الوفية و ليست الإنتهازية، ثم أخيرا و الأكثر أهمية يلزم تواجد روح المواطنة المتشبعة بقيم التعاون و التضامن لذى الأفراد و ليست الأنانية.

معلم اللغة الفرنسية: حتى لو تحققت المساواة و الإنصاف فلا يمكن ضمان إنتشار العدالة ! لأن القانون العام نفسه لا يملك الدقة المطلوبة، وليس مرتبا كما يجب، إذ هناك العديد من الحالات التي لا تحتويها عمومياته، إنه مليئ بالثغر، لذا فمن الضروري إصلاحه و إعادة تدوينه ليصير شاملا كل الحلات و بذلك يمكن جدا أن يسهم في ولادة الإنصاف و المساواة المحددان للعدالة السامية.

أستاذ التربية البدنية : العدالة هي وهمكم الأعظم... إن حقوقكم و حياتكم لضائعة، الضياع يسري في عامة الشعب، الشعب البريئ ، الشعب المخدوع ، الشعب المخدر بأحدث أنواع المخدرات الممنوعة في الدول الأخرى، الشعب البسيط الذي ينام و يستيقظ أملا في القادم الأفضل، أملا في مستقبل أحسن...

معلمة الإجتماعيات : أنت مجنون!

أستاذ التربية البدنية : ياللعار ! ياللعار ! لو كان الحمار لنفجر غضبا و ثار و لن يتوقف حتى تنهار هي أو ينهار.

أستاذ اللغة الإنجليزية : (مبتسما) دون إستنزاف بطاريتك، دولتنا قائمة على العدالة، والعدالة هي أساسها الوحيد وبه تضمن لكافة شعبها الحفاض على حيواتهم و ممتلكاتهم.

أستاذ التربية البدنية:(عيناه خرجتا من وجهه)لقد خُرِقَت! لا توجد عدالة ! ضعتم ..الجميع ضائع ! الحاكمون إنتهكوا حقوقكم... جميعها ضائعة، مضطهدون أنتم جميعا ! يالكم من حمقى!

معلم التربية الإسلامية : العدالة محققة ! العدالة التي يقصد بها إعطاء كل ذي حق حقه ! إنها محققة، و يبقى شرط دوامها خضوع الشعب لقوانين بلده، خضوعه للعقد الإجتماعي الذي فصله عن كيان و هالة الحيوان المذموم المشتهي طوال الوقت و منحه التنوير العقلي، لذا فالشعب مطالب بطاعة ملكه و طاعة القانون، لضمان حقه المدني في الحرية و الحياة، ومن إنتهك القانون فقد رفض أمر الملك، و سيحل عليه العقاب، أما الحاكمون فلا ينتهكون القانون لأنهم أصلا لديهم صلاحيات فوقه.

بدأ معلم التربية البدنية يصرخ صراخا مرعبا و يضرب بيديه و يركل الكراسي كان في حالة هياج هستري و يصيح بأعلى ماتستطيع حبال حنجرته، لم يستطع أحد الإقتراب منه، الجميع ينظرون له في خوف و إستغراب شديدين، حاول الأستاذ أن يقترب منه و يهدأه فصفعه بقوة وهو يعوي كذئب مسعور. كان مشهدا صادما شاذا خالف جميع التوقعات لم يدري أي أحد ماذا حل به، فإتصل أحد المعلمين بالإسعاف،بدأو يبعدوا عنه كل الشياء التي من الممكن أن يأذي بها نفسه، كان قد سكن بعض الوقت و بدأ يتنفس بصوت مرتفع كصوت الرابوز عندما ينفث الهواء، مضت ساعتان و سيارة الإسعاف لم تأتي بعد، حاول معلم اللغة العربية أن يقترب منه بينما هو ساكنا فإستشعره و صاح بصوت حاد يشبه صوت من يتم تمزيقه بوحشية ، فستمر في ذلك الصياح المفزع و هو يخبط يديه على الأرض بقوة،بعد بضع دقائق جمد هيكله بالكامل، صار ملقى على عرض الأرض، إقترب منه المدير، أداره ليضع رأسه على قلبه مستشعرا، فإبتعد بسرعة...
فكانت الصدمة أن الرجل قد فارق الحياة إثر سكتة دماغية حادة، و الإسعاف لم تصل إلا بعد فوات الأوان.

قرر المدير أن يأجل الإجتماع إلى يوم الغد على الساعة نفسها. كما غادر الأستاذ مكتب الشرطة عند السابعة بسبب التحقيقات الجارية للإدلاء بالشهادات حول الوفاة التي وقعت، كان يوم متعبا جدا و غريبا، لم يعش مثيل له قط، إستلقى على سريره يديه على جبهته و بدأ يستعيد ذكرى ما حدث حتى داهمه النعاس...

في اليوم التالي كان الجميع داخل قاعة الإجتماع يجلسون في صمت يتبادلون النظرات، فكسر المدير الصمت قائلا أن ما حدث قد حدث ثم بدأ يوزع عليهم الأوراق الشاملة لمقتطفات النظام الأساسي التي كان قد اخبرهم عنها...بعد بضع دقائق "تسهيلات في صاحت معلمة الفزياء الترقية"..."دمج جميع الأطر في الوظيفة العمومية و إلغاء التعاقد" ثم بعد وهلة صاحت أستاذة الإجاماعيات "تعويضات إضافية تصل إلى 8000درهم" فوقف جميع الأساتذة وقفة رجل واحد و بدأوا يصفقوا تهنئة لبعضهم البعض بمناسبة هذه المفاجأة السارة. فقالت معلمة الإجتماعيات و عيناها قد غرغرتا بدموع:

ـ رَحِمَهُ الله ! رَحِمَهُ الله !كنت متأكدة ! كنت متأكدة أن دولتنا تحبنا ! لو أنه فقط بقى على قيد الحياة ليشهد هذا بأم عينيه.

إسترحم عليه المعلمون في إقتباض، ثم بدأو ينصرفون...
بعد بضعة أيام قليلة صدرت النسخة الأصلية الكاملة للنظام الأساسي و كانت حقا كما لم يتصورها أحد موظفي قطاع التعليم من قبل، فقد كانت حلة من التدبير الهادف و التحفيز البارز، كما لو أنها تعود لجالية فائقة التقدم و الحداثة، لقد أنعمت على رجال و نساء التعليم بنوبة من السعادة و الفرح التي قد لايزول أثروها أو يتلاشى إلا بعد قرون و قرون، كانت مواد العدالة و المساواة الخالصة ستظل راسخة منقوشة في ذاكرتهم إلى الأبد، فهي تظهر مذى قيمتهم لذى دولتهم العزيزة، كيف لا و هم المثابرون القائمون بالواجب على وجهه الأكمل ؟ كيف لا و الطلاب يرونهم المثال المقتدى به طوال الزمن ؟ كيف لا و هم العقول السخية بالخير و الكرم المعرفي الأحسن ؟ كيف لا و هم الناصحون المرشدون للمتعلم طوال مساره التعلمي دون حتى أن يكون ممتن؟ كيف لا و هم السند الوحيد و الصديق المفيد للمريد القادم من بعيد ؟ كيف لا و هم المؤدِبون المصلحون للمشاغب المتهور و جعله تلميذ ؟ كيف لا و هم القدوة الفاضلة و الروح الثائرة غيرةً على منفعة المتعلمين ؟ كيف لا و هم الذين لايغفو لهم جفن ولا يهنئ لهم فؤاد بعد شرح درس إلا وصرح الطلاب أنهم فاهمين؟ كيف لا و هم الجامعون للترفيه و التعليم أثناء الفصل لطرد الملل و جعل الطلاب مبتهجين ؟ كيف لا و هم منبع التفائل بعد حصول المريد على نقطة قد تجعله محزين ؟ كيف لا و هم من يقدمون المساعدة في أي وقت دون أن يكون لديهم مانع ؟ إنهم النخبة بدون منازع!

لقد إستمرت مشاعرهم الإجابية بالتزايد شيئ فشيئ تجاه هذه الوثيقة الطاهرة، التي لم تحتوي قط مادة لم ترقهم، كانت وثيقة الكمال نفسه، بل هناك من النخبة من جعل لها إطارا و مركزها في بيته كوثيقة الإستقلال الشريفة، التي إستقلوا بها عن الإستعمار التعاقدي، وهناك من صانها و حفظها في مكان لا يعلم به سواه، فالطهارة المبجلة يلزم دائما أن تكون بعيدة عن أي دنس محتمل.

لاكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، بل تطور قليلا، فالأساتذة لم يتمكنوا من البقاء دون التعبير عن غمرة فرحهم و السعادة التي إعترتهم، كما أن ولعهم الشديد بهذه الأخبار الممتازة لم يعد يسمح لهم بمواصلة العمل كما يجب، و بدأ يزداد مفعول تلك الوثيقة العجيبة يوم بعد يوم...

بدأوا يتخذون إجراءات للترويح و إفراغ بعض من تلك الشحنات الإجابية المرتفعة، حيث قررو الحصول على أربع ساعات لذلك و الباقي للتدريس، مما أثار فضول الطلاب.فقد بدأت تطرح علامات الإستفهام، التلاميذ قلقين على مصير مشوارهم الدراسي إذا بقى الوضع على وهذه الحال...

بعد حلول شهر أكتوبر، حصل كافة الأساتذة على رواتبهم الكبيرة مستشيطين فرحا و إبتهاجا، كان الأستاذ قد وصل مستويات عالية من الحيوية و الإنفتاح ، إذ قام يوم الأحد بإبتياع دراجة لبنته و بالإحتفال مع العائلة و الأقارب، حيث عمت البيت موائد مملؤة بأطباق من الدجاج المقلي و اللحوم المشوية و المشروبات الغازية، إضافة إلى المسكرات بمختلف أنواعها، لقد صرف مبالغ كبيرة من المال كي ينشط مع العائلة.

ومع ذلك فالتأثير لم يزول، فيوم الإثنين كان المعلمون يحسون بأن عواطفهم الجياشة قد تضاعفت. لذا قرروا أن يضعوا حلا نهائيا لمشكلة السعادة الهائلة و الغامضة التي إعترتهم منذ إطلاعهم على وثيقة الإستقلال، وذلك من خلال القيام بتعير جماعي عنها، يوم 5 أكتوبر أمام مركز وزارة التربية و التعليم بالرباط، لاسيما أن ذلك اليوم قد صادف ذكرى اليوم الوطني للمدرس، فقد بدى مناسبا جدا للإفصاح عن مشاعر فائقة الإجابية، الشيئ الذي وخز فيهم موجة أخرى من الجماح العاطفي التي لايستهان بها.

لقد عزم أستاذنا أيضا على السفر للرباط، فقد أصبح يصرف نقوده دون إكثرات أو مبالاة، لم يعد قلقلا حول أي مصاريف أو فواتير...

كان رفقة جميع أساتذة المؤسسة التي يدرس فيها، إذ الكل يرغب في السفر و المشاركة في المهرجان، الجميع مسرور و في أفضل مزاج، كانوا متجهين للمحطة القطار، ضحك معلم الرياضيات بصوت صاخب، فلمحته أستاذة الفزياء، تذكرت هي الأخرى فرحتها العظيمة و بدأت تقهقه و تقهقه بهستيرية حتى كادت تخرج روحها من فمها، وكذلك المعلمون الأخرون، بدأو بالضحك مع دبدبة و إرتداد و إهتزاز ، فأنتجوا أصواتا شبيهةً بالمحركات عند إشتغالها، باستثناء الأستاذ، الذي إستمر يضع يده على فمه و يدفع الضحكة إلى داخل ذاته التي لم تعد واعية، أطلقت صفارة القطار الباخري الذي لا يزل معتمدا، فأخذ الجميع أماكنهم و إنطلقت العربات كالسلاحف صوب مدينة الرباط...

يتبع...